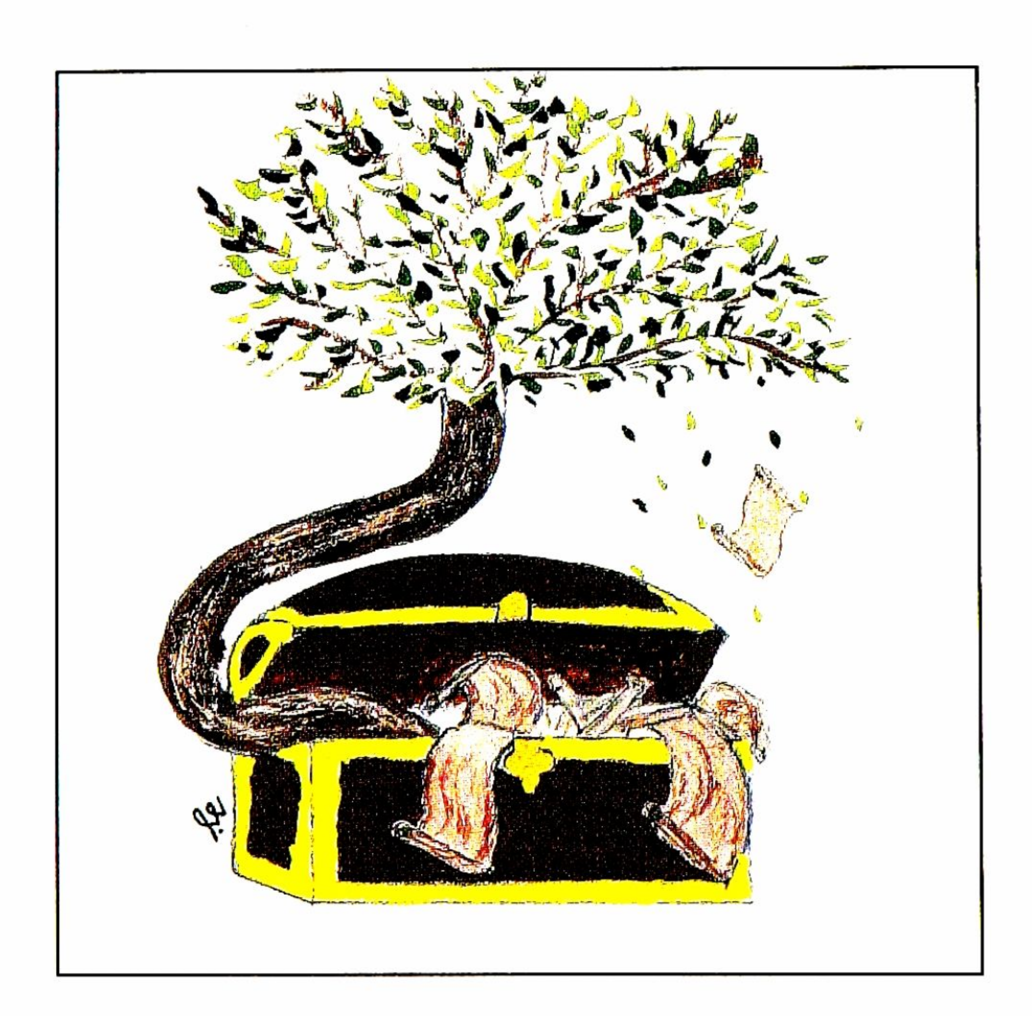
عبدالله محمد الغذامي

حكاية سحّارة



"قال أبو العباس:
وهذا .. من تكاذيب
الأعراب"



المركز الثقافي العربي

حكاية سحَّارة

* **حكاية سحّارة**

* تأليف: د. **عبد الله الغَذّامي**

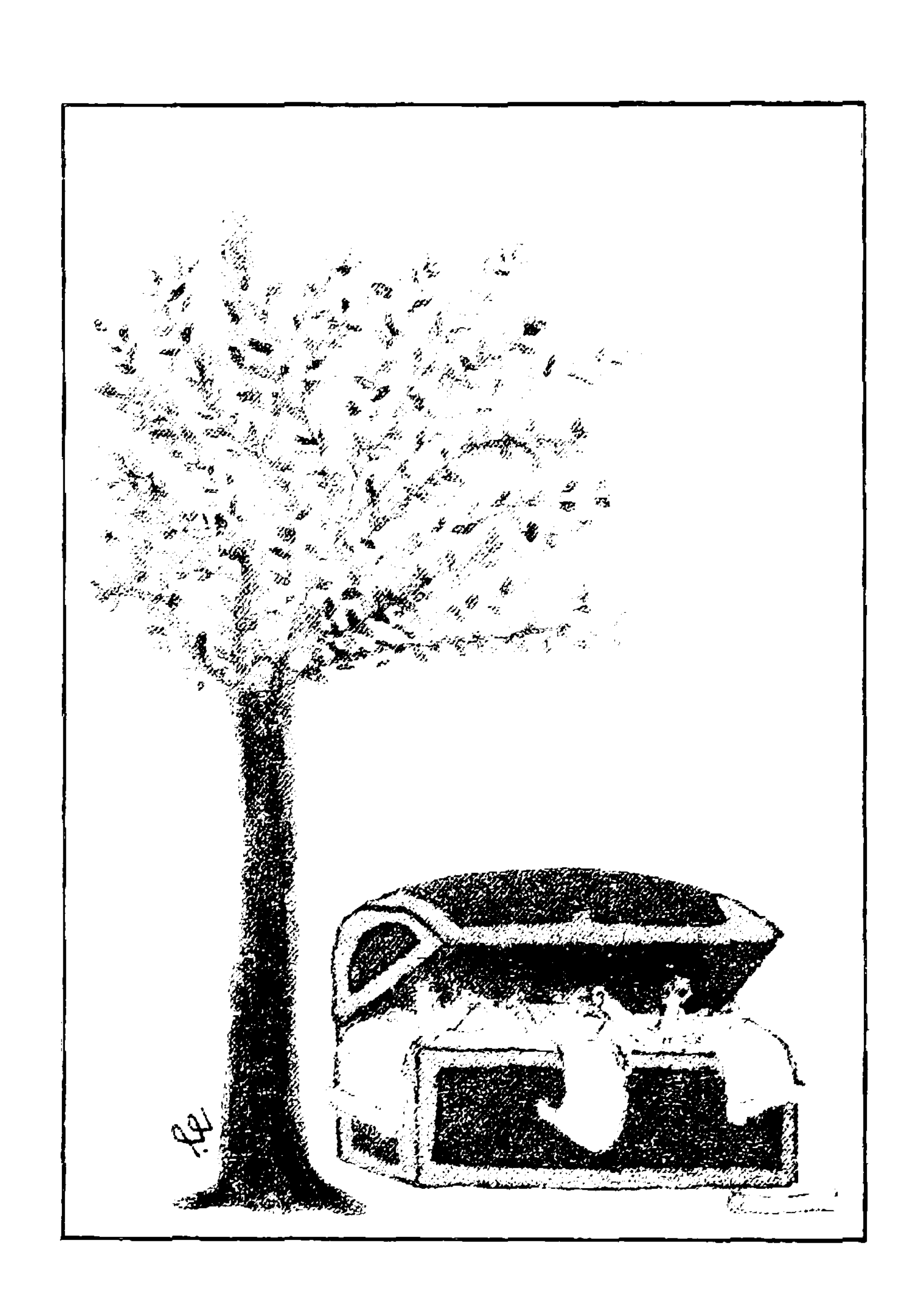
* الطبعة الأولى، **1999**

* الناشر: **المركز الثقافي العربي**.

العنوان:

□ **الدار البيضاء**/ • 42 الشارع الملكي (الأحباس) • فاكس /305726/ • هاتف/ 303339 - 307651/.
• 28 شارع 2 مارس • هاتف /271753 - 276838/ • ص.ب./ 4006/ درب سيدنا.

□ **بيروت**/ الحمراء - شارع جان دارك - بناية المقدسي - الطابق الثالث.
• ص.ب/ 113-5158/ • هاتف/ 352826 - 343701/ • فاكس/ 00961-1-343701/.



عبدالله محمد الغذّامي

حكاية سحّارة



المركز الثقافي العربي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

منذ أن وقفت على باب (تكاذيب الأعراب) الذي عقده أبو العباس المبرد في كتابه الكامل (2/ 548) وأنا مغرم بهذا الفن، ولقد كتبت دراسة نقدية عن (جماليات الكذب) حول هذا الفن الطريف والشائع لدى الأعراب والبادية، وذلك في كتابي **(القصيدة والنص المضاد)**.

وإني لأرى أن هذا فن مهم من فنون الآداب العربية يحسن بنا أن نعيد إليه الاعتبار، وأنا هنا أكتب هذه الحكايات من باب حنين الروح إلى أصلها البدوي فأمارس تكاذيب الأعراب في هذه الحكاوي.

معنى السحارة:

يستعمل أهلنا من سالف أيامهم صندوقاً من خشب مطعم بالمعدن ومزين بنقوش وحفريات وزركشات تحيط به، وتستعمله النساء لحفظ حوائجهن من المصاغات والحناء والورد والمهم من الأوراق والمستندات ويحفظ في غرفة المنام، وتفوح منه روائح البخور والحناء مثلما تختلط فيه المحفوظات ويسمى (السحّارة).

* * *

عبد اللّه محمد الغذامي

تكاذيب

قال أبو العباس، وهذا باب من تكاذيب الأعراب:

تكاذب أعرابيان فقال أحدهما: خرجت مرة على فرس لي فإذا أنا بظلمة شديدة فيممتها حتى وصلت إليها، فإذا قطعة من الليل لم تنتبه فما زلت أحمل عليها بفرسي حتى انبهتها، فانجابت.

فقال الآخر: لقد رميت ظبياً مرّة بسهم فعدل الظبي يمنة، فعدل السهم خلفه، فتياسر الظبي فتياسر السهم خلفه، ثم علا الظبي فعلا السهم خلفه، فانحدر، فانحدر عليه حتى أخذه. (المبرد: الكامل 3/ 548).

وانظر عبد الله الغذامي: القصيدة والنص المضاد ـ جماليات الكذب. المركز الثقافي العربي. بيروت/ الدار البيضاء، 1994.

1 ـ حكاية سخَّارة

ـ 1 ـ

ألّف طه حسين كتابه الجميل (مرآة الضمير الحديث) بناء على (مخيلة) طريفة حيث نسب الكتاب إلى الجاحظ وجعل صاحبه يأتي إليه فرحاً وبين يديه كتاب مخطوط لم تعرفه المطبعة بعد، ظفر به عند بعض الوراقين، وفيه رسائل مختلفة للجاحظ وغير الجاحظ. (ص 7). ويحتاط طه حسين للأمر فيضع في صدر الصفحة الخامسة من الكتاب عبارة تقول عن الكتاب إنه **(رسائل تنسب إلى الجاحظ، أراها محمولة عليه لأن تكلف التقليد فيها ظاهر)**.

ويدخل طه حسين مع صاحبه في مجادلة قصيرة يببحان فيها صنيع مخيلتهما إذ ينسبان إلى الجاحظ ما لم يقله: ويأتي من هذه المحاورة قول طه حسين: **(قلت لصاحبي: أجادٌّ أنت في إضافة هذا الكلام إلى الجاحظ؟ قال وهو يغرق في الضحك: ما أكثر ما أضاف الجاحظ إلى الناس ما لم يقولوا فما يمنعني أن أضيف إليه ما لم يقل. ص 17)**.

إن طه حسين لا يبتكر فناً جديداً من فنون التأليف وإنما يقتفي سبيلاً سلكها الجاحظ من قبل وأشتهر بها حيث كان يؤلف الكتب والرسائل وينسبها إلى آخرين منهم من يعرف ومنهم من لا أحد يعرف عنه شيئاً وربما كان شخصية من مبتكرات الجاحظ. غير أن الجاحظ كان يخفي اسمه ويدع الكتاب يسير في الناس تحت مظلة الاسم المستعار الذي يكون عادة من الأموات أو من غير المعروفين. بينما نرى طه حسين يتوج كتاب (مرآة الضمير الحديث) باسمه، ويكتفي باستضافة اسم الحاجظ في المقدمة، مع إشارات واضحة من التشكيك والتنبيه.

ولقد أبدع طه حسين في هذا الكتاب حيث كتب رسائل جميلة ومعبرة فيها وجدان عميق وتأنق بياني ساحر في فن الإنشاء والترسل.

ـ 2 ـ

ومثلما أن طه حسين قد عثر على تلك (المخيلة) الطريفة فإنني قد وجدت نفسي أمام مخيلة فيها بعض الشبه مع مخطوطة طه حسين.

وفي هذه المخيلة عثرت على (سحَّارة) قديمة وجدت فيها مطويات من الأوراق القديمة والمخطوطات وشرعت أنظر فيها وأقلّب في صفحاتها فوجدت فيها طرائف من الكتابات وبعض المدونات والملاحظات التي كان صاحب (الشنطة) يكتبها ثم يلقيها في سحَّارته هذه.

ولقد تشوقت كثيراً لمعرفة صاحب الشنطة ولم أتبين ذلك على وجه التدقيق، إذ قد وجدت أسماء عدة وردت في بعض الوثائق المحفوظة ومنها ورقة عقد زواج، وأخرى عن مبايعة تمت بين رجلين، وثالثة فيها أشعار مذيلة باسم صاحبها، غير أن هذه الأسماء تختلف عن بعضها البعض مما يجعلني عاجزاً عن تقرير اسم صاحب الشنطة، ولربما يميل المرء إلى الظن أن صاحب وثيقة الزواج هو صاحب الشنطة إذ إنه من المستبعد أن يحتفظ الإنسان بشهادة زواج لا تخصه. ولكنني أعود فأقول إن هناك احتمالاً واضحاً بأن تكون هذه الورقة محفوظة في الشنطة بوصفها (أمانة) تركها صاحبها عند مالك السحارة ليحفظها له. ومما يؤيد هذا الاحتمال أن (السحَّارة) تتضمن أوراقاً ووثائق كثيرة لا يجمعها رابط واحد. ومثلما كان فيها أوراق شخصية خاصة فإن فيها ـ أيضاً ـ أوراقاً تتضمن تقارير علمية وتوصيات إدارية ومحاضر رسمية عليها تواقيع لأشخاص متنوعين، وهذا ما حيرني في أمر هذه (السحَّارة) وأمر صاحبها أو أصحابها، وسأظل مشغولاً في أمر انتساب السحَّارة، ولكنني لن أشغل القُراء معي في شأن النسبة وإن كنت سأشغلهم وأشركهم معي في الاستمتاع بقراءة بعض أوراق هذه السحَّارة الطريفة.

ـ 3 ـ

ومثلما تنوعت محتويات السحَّارة وتعددت أسماء الموقعين على الوثائق فإن تواريخ الوثائق تتنوع أيضاً. فشهادة المبايعة تشير

إلى تاريخ هجري مبكر هو الثامن عشر من شهر ذي القعدة سنة 1261هـ، بينما نلاحظ أن أقرب تاريخ لنا هو الرابع عشر من شهر مايو 1988 الميلادي، وهو ما ذيل على تقرير عن أطروحة دكتوراه سوف أعرضه كاملاً على القُراء في حلقة تأتي - إن شاء الله -.

وإن لمن اليسير على المرء أن يخمن بناء على هذه الفروق الكبيرة في تواريخ الأوراق أن السحَّارة لا تخص مالكاً واحداً. وأنها قد تعاقبت على أيدٍ كثيرة، وحافظ ملاكها المتعاقبون على محفوظات أسلافهم، وأضافوا إليها بعض ما يهمه حفظه.

بقي أن أقول إنني عثرت على هذه السحَّارة (المخيّلة) وأنا أسير ليلاً حسب عادتي في ممارسة رياضة المشي، وخولت لنفسي حق الإطلاع والنشر والتصرف بما في هذه السحَّارة التي أدعو الأخوات والأخوة من القارئات والقُراء إلى مشاركتي النظر والاستمتاع ببعض ما فيها. ولسوف أنشر تقارير ووثائق من مكنون هذه السحَّارة في حلقات تتوالى.

2 ـ حكاية سحَّارة

(ما جاء عن ديوان لا يصلح للنشر)

ـ 1 ـ

بعد الحديث عن حكاية السحَّارة وما تنطوي عليه من أوراق ووثائق، أنشر أحد التقاير التي وجدتها ضمن محتويات هذه السحَّارة. وهو تقرير عن ديوان بعث به صاحبه إلى دار نشر كبرى في ذلك الزمن. واسم هذه الدار كما ورد في التقرير المخطوط هو (دار عبقر) وتحت ذلك شعار ينص على أن هذه الدار تختص بنشر عيون الشعر وتركز على الفحول من الشعراء.

ويبدو أنها من دور النشر العريقة التي لم نعاصر نشاطها ولم نحظ بشرف التعامل معها أو التعرف إليها.

والذي يظهر من التقرير المخطوط هو أن هذه الدار تحرص على صيانة التراث والثقافة من كل ما يسيء إلى سمعة الدار أولاً وإلى تربية الناشئة ثانياً. وهذا هو ما يوحي به التقرير.

أما صاحب التقرير ومعده فهو رجل خط اسمه وتوقيعه على ذيل كل ورقة من أوراق التقرير، وهو: حداد بن حارث

الجزاري. ويظهر من لغته ومن عباراته أنه رجل شديد الغيرة على الذوق وعلى تربية الأجيال وعلى نقاء الثقافة ونصاعتها. ولذا فإنه قد كتب تقريراً تظهر فيه هذه الغيرة وذلك الحرص.

أما صاحب الديوان فهو رجل اسمه أحمد حسين ولقد بعث الأخ أحمد حسين بديوانه إلى (دار عبقر) راغباً في نشره لدى هذه الدار كي يكون من فحول الشعراء ومن أصحاب العيون الشعرية. وهذا ما حدا بالدار لأن ترسل الديوان إلى الأستاذ (حداد بن حارث الجزاري) لكي يفتي في أمر هذا الديوان.

ولقد تمكن الأستاذ حداد بن حارث الجزاري من كشف تهافت هذا الديوان، ومن فضح سقطاته فراح يحذر (دار عبقر) من مغبة نشر مثل هذا العمل الفج وما ينطوي عليه من مثالب تضر بالأجيال وبثقافة النشىء وذائقة القُراء.

وإليكم نص التقرير ـ كما وجدته مخطوطاً في هذه السحّارة:

بسم اللّه الرَّحمٰن الرَّحيم

السيد مدير عام دار عبقر (متخصصون بنشر عيون الشعر ودواوين الفحول).

السَّلام عليكم ورحمة الله وبركاته. . .

أقدر لكم غيرتكم الكبيرة على لسان العرب وأُكبِرُ فيكم إحساسكم الصحيح بحق أهل العلم والفضل لكي يكون لهم الرأي الفصل بشأن ما يصح نشره في الدار وما لا يصح.

وتعلمون أنني قد كتبت لكم حتى الآن خمسين تقريراً عن خمسين ديواناً كلها لا تصلح للنشر ولا يجوز نشرها في داركم الموقرة لأنها تنطوي على فساد لغوي وذوقي مشين، ولكونها تخالف العرف والتقاليد التي تعلمناها من معلمينا الأفاضل عن معنى الشعر وشروطه، وعن حدود التعبير والذوق.

وإني لأشكركم إذ صرفتم النظر عن هذه الدواوين التي أوصيتكم بإهمالها، وآخرها ذلك الديوان العجيب الذي سماه صاحبه (سقط الزند) وهو حقاً سقط لا يخرج منه قارئه بغير الدعاء على صاحبه بأن يعمي الله عينيه معاً وبأن يستر على داركم الموقرة وأن يحفظها من نشر مثل هذا الغثاء الذي لا يقوله إلاَّ من عميت بصيرته.

وإني لممتن بأن توفقتم بالتشاور معي لأكون سداً حصيناً أحمي داركم من هؤلاء العابثين.

أما الذي بين يدينا وهو ديوان قدمه المدعو أحمد حسين، فإني أبادر بالتحذير من نشره وهذه هي الأسباب:

أولاً ـ إن صاحب الديوان رجل نكرة لم نسمع به ولم نره من قبل، ولست أرى موقعاً للنكرات في عالم الفحول.

ثانياً ـ يظهر من سيرته الذاتية أنه فتى لما يزل صغيراً فهو غض ولم يستو عوده بعد ـ ولو زعم أن عمره أكبر من عمر طرفة بن العبد أو أبي القاسم الشابي فإننا نقول: إنك لن تبلغ شأن الأوائل مهما فعلت.

ثالثاً ـ يظهر عليه الغرور الشديد والاعتداد بنفسه فهو يقول مثلاً:

أَمِطْ عنك تشبيهي بما وكأنه
فلا أحد فوقي ولا أحد مثلي

ويقول:

وإني لمن قوم كأن نفوسنا
بها أنف أن تسكن اللحم والعظما

ويقول:

أنا صخرة الوادي إذا ما زُوحِمَتْ
وإذا نطقت فإنني الجوزاء

ويقول ما هو أعجب من ذلك وأخطر ولننظر قوله:

أي محل أرتقي أي عظيم أتقي
وكل ما قد خلق اللّه وما لم يخلقي
مُحْتَقَرٌ في همتي كشعرة في مفرقي

هذا ما يقوله أحمد حسين صاحب الديوان: وفي ذلك ما فيه من غرور وكذب ومباهاة بالنفس، إضافة إلى أن فيه عيباً من عيوب القوافي التي لا يقبلها العلماء وهي (التضمين) ما بين البيت الثاني والثالث، وهو عيب لا يرضاه أهل العروض وأهل النظم.

وفي الديوان أبيات من هذا القبيل الذي ينم عن غرور

وغطرسة وكبرياء.

رابعاً ـ يقوم شعره كله على مديح يغالي فيه ويستميت في الشحاذة والاستجداء. وقد يبلغ به الأمر أن يمدح الرجل ثم يعود فيهجوه. وقد فعل ذلك مع زعيم عربي معروف وعرَّض بالزعيم وبدولة الزعيم، وهي دولة عربية شقيقة وذكرها بالاسم الصريح، وقال عن الزعيم: (**لا تشتري العبد إلاً والعصا معه**) فأساء للبلد وزعيمها كما أنه أظهر عنصرية واضحة، وهذا يدل على بذاءة المدعو أحمد حسين وقلّة ذوقه وانعدام كياسته.

خامساً ـ ويزيد على ما سبق أن في أشعاره لحناً واضحاً يتكرر في عدد من الأبيات، وقد وضعت أقواساً وعلامات على الصفحات تدل عليها. كما أنني لمست مداخل على عقيدته في أبيات عدة وضحتها بعلامات حمراء.

ويضاف إلى ذلك أنه يحاول محاكاة الفحول في مطالع القصائد فأتى ببعض المطالع الغزلية، ولكن غزله بارد وجاف لا يطرب له سامع ولا يهتز له قارىء.

وفي شعره كثير من المعاني الساذجة المبتذلة ومن أمثلة ذلك قوله:

أ ـ إنما الجلد مَلْبَسٌ وابيضاض
النفس خير من ابيضاض القباء

ب ـ أيكون الهجان غير هجان
أم يكون الصراح غير صراح

وانظر إلى قوله:

وحمدان حمدون وحمدون حارث
وحارث لقمان ولقمان راشد

فأي شعر هذا، وأي ذوق هذا...!؟

هذا وإنني لم أكلف نفسي عناء كشف سرقاته وانتحالاته، وهي كثيرة.

ولذا فإنني أوصيكم بعدم نشر هذا الديوان فهو ينطوي على أشعار فيها مفسدة واضحة تفسد أخلاق الناشئة وتشيع في الناس الغرور والنفاق، وللمدعو أحمد حسين لغة مؤثرة وبليغة سوف يتسرب من خلالها تأثيره على ضعاف العقول والعامة فيتأثرون به ويحفظون أشعاره. وفي ذلك خطر عظيم من الأولى سدّ بابه والتخلص منه، والسلام.

أخوكم

حداد بن حارث الجزاري

* * *

هذا نص التقرير كما وجدته في السحَّارة ولقد نقلته كاملاً دون تدخل مني لكي يراه القُراء كما ورد في المخطوطة. وفي الفصل القادم سأعرض تقريراً آخر عن أطروحة دكتوراه ـ إن شاء الله.

3 ـ حكاية سحَّارة

تقرير عن أطروحة دكتوراه

ومن بعض ما وجدت في السحَّارة من تقارير ووثائق، ومنها هذا التقرير عن أطروحة دكتوراه وجدته محفوظاً مع الأوراق، وعليه تعليقات مضافة بقلم الحبر، بينما التقرير ذاته مطبوع ومختوم. وهذا نص التقرير:

بسم اللَّه الرَّحمٰن الرَّحيم

سعادة الأستاذ الدكتور عميد السلك العلمي الموقر السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. . .

وصلتني أطروحة الدكتوراه المحالة إليَّ من سعادتكم بخطابكم ذي الرقم 13 والمؤرخة في الفاتح من أيلول الأصفر 1988، وفيها تطلبون رأيي عن هذه الأطروحة، ومقدمها الطالب عبد القاهر عبد الرحمن.

ولقد قرأت هذه الأطروحة مرة ثم كررت القراءة مثنى وثلاث ورباع. ولم أخرج منها إلاَّ بالصداع والضياع، فصاحبها مغرم بتعقيد الأمور والإغراق في الإبهام وتصنع الفلسفة والتنطع بالجدل.

ثم إنه أدخل نفسه في علم من علوم العرب والأسلاف من أهل البلاغة والعلم ممن لا أمل للأخ عبد القاهر في بلوغ شأوهم، مع ذلك فإنه يتظاهر بأنه قد أتى بما لم تستطعه الأوائل. وأنَّى له ذلك وقد أتى الأولون على كل شاردة وواردة في علم البلاغة والفصاحة.

إن ملاحظاتي على هذه الأطروحة كثيرة وسوف أوجزها لكم في هذا التقرير وسأختصر القول كي لا أضيع وقتي ووقتكم مع هذا العبث المكشوف، وأهم هذه الملاحظات ما يلي:

أ ـ لقد اختار الطالب عبد القاهر عبد الرحمن أن يسمي أطروحته باسم غير علمي فوضع لها عنواناً لا تتوفر فيه شروط المنهجية ولا تنطبق عليه قواعد البحث ولوائح الدراسات العليا وهو: (دلائل الإعجاز) وهذا عنوان عام وفضفاض، بينما تنص لائحة الدراسات العليا التي أقرها أهل العلم والدراية من فطاحل العلماء وفحول الإداريين تنص على وجوب الدقة والشمولية في عنوانات الأطروحات. وإني لاستغرب كيف رضيتم بتسجيل هذا العنوان، وكيف ارتضاه الأستاذ المشرف.

والأمر الضروري هنا هو توجيه الأخ الطالب عبد القاهر عبد الرحمن بأن يختار عنواناً لأطروحته تتوفر فيه شروط المنهجية وشروط لائحة الدراسات العليا.

ب ـ إن الأخ عبد القاهر عبد الرحمن يخالف قواعد البحث العلمي ولا يضع هوامش يوثق فيها مصادره ومراجعه، كما أنه

لم يضع مقدمة يستعرض فيها الدراسات السابقة عليه ولم يبين (إشكالية) البحث وفرضياته!!!!!

جـ ـ إنه يوزع بحثه على فصول وأبواب لا ينتظمها ناظم وينهي حديثه دون خاتمة، وينتقل من فصل إلى آخر دون تمهيد.

د ـ حاول أن يأتي بمصطلحات يوحي ظاهرها بأنها جديدة وأنها من مبتكراته، مثل مصطلح (النظم) وهو مصطلح عالجه الإمام الباقلاني صاحب الإعجاز وقال فيه القول الفصل الذي لا مزيد عليه.

ومن العجيب أن الأخ عبد القاهر حاول أن يعطي لهذا المصطلح معنى لم يقل به أحد من شيوخ البلاغة وسلاطين البيان. وأتى رأي الطالب عجيباً وغريباً ونشازاً لم يرد عند أسلافنا. ولو كان في ذلك فضل أو مزية لسبقنا إليه أهل العلم من رجال السلف، فكيف بفتى غرّ يأتي اليوم ليقول ما لم يقله علماؤنا الأفاضل...؟ وهل تراه سيزعم بأنه خير منهم أو أنه سيأتي بما لم تستطعه الأوائل..؟

هـ ـ يبدو أن أخانا قد استحسن لعبة المصطلحات فراح يبتكر من رأسه أشياء من العجب العجاب مثل مصطلحه العجيب الغريب المضحك وهو ما سماه (معنى المعنى).

هذا أمر عجب، وكل ما نعرفه من شيوخنا هو اللفظ والمعنى. وهو ما قال به العلماء الأجلاء كالجاحظ وابن قتيبة وقدامة بن جعفر والباقلاني وغيرهم من علماء البلاغة والبيان، ولا يذكر أحد منهم شيئاً غير هذا الثنائي المزدوج الذي يلزم

الكلام ويلازمه. فكيف يأتي الأخ عبد القاهر ويقول مصطلحه هذا في أطروحة علمية يتوخى فيها الدقة والمنهجية والرصانة العلمية والالتزام بشروط البحث والأمانة العلمية. ثم إن هذا عبث ما بعده عبث، إذ كيف يقول إن للمعنى معنى. .؟ سبحان الله على هذه الجرأة والتطاول، وإذا كان رأي الأخ عبد القاهر كذلك فلماذا لا يقول أيضاً: لفظ اللفظ ويعطينا فهماً جديداً للغتنا ولعلوم أسلافنا بأن للفظ لفظاً مثلما أن للمعنى معنى.

ولقد ضيع الأخ عبد القاهر وقته ووقت قارىء أطروحته في كثرة شروحه لهذا المصطلح العجيب وظل يروح ويجيىء مردداً ومكرراً ومبدياً ومعيداً حول هذا المصطلح. وهو في ذلك كله لا يفعل شيئاً سوى أن يزيد من غموض مصطلحه ويزيد من تعقيد موضوعه، ولو هداه الله واكتفى بما قاله أهل العلم في هذا الشأن لأراح واستراح وقال قولاً لا مشاحة فيه وسلم من الخلط والخطل والجدل وإطالة الكلام فيما لا فائدة منه.

و ـ يطرح في كتابه بعض أفكار تثير الريبة وتزرع الشك، منها إصراره على القول **(إن المجاز أبلغ من الحقيقة)** وكرر ذلك مراراً، وعلى هذا القول مآخذ كثيرة، وهناك من العلماء من أنكر المجاز وحذر منه كما تعلمون، كما أن الإعلاء من شأن المجاز والحماس له يفتح باباً للتأويل وصرف النصوص وتوجيه الكلام بعيداً عن وجوهه الحقيقية. ثم إن ذلك يحمل طعناً بالحقيقة وتشويهاً لصريح المراد.

وهذه بمفردها باب للريبة والشك يجب سده واكتفاء شره.

ز ـ يميل الأخ عبد القاهر عبد الرَّحمٰن إلى الطعن في أهل العلم من المفسرين والبلاغيين، مثال ذلك ما قاله في ص 236 وفي ص 282 مما يتنافى مع ما يجب لأهل العلم من التقدير والإكرام، وهذا دليل على سوء طبع صاحبكم وعدم وفائه. وهو علامة على غروره وثقته الزائدة بنفسه وكماله ـ والعياذ بالله.

حـ ـ نرى أن الباحث غير مؤهل لنيل درجة الدكتوراه على هذه الأطروحة، ونقترح عليكم حذف هذا الموضوع، وإعطاء الطالب فرصة أخرى على موضوع آخر، ولعله يحقق إحدى المخطوطات في علم البلاغة ليتتلمذ على ما فيها من علم ثابت ورأي راسخ مجرب. ولكم خالص تحياتنا.

* * *

هذا ما أمكنني نقله من الوثيقة. ولم أتمكن من معرفة اسم صاحب التقرير إذ إن الاسم تعرض للشطب والمسح، وبجانبه تعليق على الهامش هذا نصه:

(نكرة، غير معروف، لا قيمة لرأيه، ولا وزن لمشورته)

كتبت هذه التعليقات بجانب اسم صاحب التقرير بعد شطبه وكشطه. ولكن الذي ظهر وبان هو تاريخ التقرير وهو 14/ مايو/ 1988م. ومن خلف الورقة كان هناك تعليقات شديدة اللهجة ضد التقرير وصاحبه وفي كل هذه كان يشار إلى صاحب الوثيقة بصفة (النكرة) الذي لا يفقه ولا يميز. وإني لأعتذر إلى القُراء والقارئات عن عدم نشر التعليقات لأنها حادة إلى درجة لا يمكن نشرها.

4 ـ حكاية سحَّارة

في السحَّارة بعض حكايات طريفة أسوق أمثلة منها في هذه المقالة (والرقم المصاحب للحكاية يمثل رقم التسلسل فيما وجدته من ورقات هذه الحكايات).

ـ 7 ـ

ذهب (ماجد) إلى الطبيب صباح الاثنين على موعد حصل عليه بعد جهد خاص ووساطة من أحد معارفه، وكان عليه أن ينتظر طويلاً كي يدخل إلى الطبيب أخصائي القلب، ولما جاء دوره ودلف خلف الممرضة إلى غرفة الفحص وشرع في تنفيذ أمر الممرضة بأن يتمدد على السرير، تذكر أن لديه موعداً آخر مهماً جداً وربما كان أهم من موعده مع الطبيب، واحتار (ماجد) في أمره مع موعدين متضاربين، وليس بيده أن يجمع بين المكانين في وقت واحد.

عند ذلك قرر أن يخلع (قلبه) وأن يضعه على السرير ليفحصه الطبيب على راحته، بينما ينصرف بباقي جسده إلى موعده الآخر. وهكذا غادر المستشفى بهدوء وثقة، وحينما

وصل إلى موعده الغالي اكتشفت (منى) أن (ماجد) متبلّد الإحساس وأنه بارد الاستجابة فغضبت منه وطلبت منه الانصراف، فانصرف دون مبالاة، مما زاد من حنقها عليه واشمئزازها منه.

راح ماجد إلى منزل والدته حيث طرح جثته على أول مقعد احتك به في المجلس وتمدد من غير مبالاة.

ـ 8 ـ

بعد أن فرغ الطبيب من كافة المواعيد وانصرف إلى تناول الغداء في مطعم المستشفى راحت الممرضة تلملم الملفات والأوراق ومعدات الفحص ووجدت من بينها (قلباً) ملقى على السرير، احتارت في أمر هذا (القلب) ولم تشأ أن تشغل الطبيب وتلهيه عن غدائه واستراحته فقررت أن تضع القلب في ملف المريض على اعتبار أنه سيأتي يوماً لمراجعة الطبيب وحينها تعيد إليه قلبه وتطلب منه ألا ينسى جهازاً كهذا مرة أخرى.

ـ 9 ـ

في المساء جلست (سوزي) تحدث زميلاتها في السكن عن ذلك القلب المنسي في العيادة. ولقد وجدت الممرضات موضوعاً طريفاً للحكي والتندر، وكان أشد ما هيجهن وجود (قلب رجل) بلا صاحب وبلا حراسة. وبدأت كل واحدة منهن تنسج حكايات وتهيؤات عما كانت ستفعله لو أنها وجدت قلباً

لرجل مرمياً على السرير.

وتصورت إحداهن أن هذه فرصة لكشف أسرار الرجل والتعرف على مكنوناته، واقترحت الأخرى أن تضع القلب على جهاز التسجيل لكي يفره مثل الشريط فيحكي كل ما في داخله. بينما تصورت الثالثة أنها قامت في الصباح فوجدت في الثلاجة قلباً محفوظاً في علبة اللحوم وأنها قامت بتقطيعه قطعاً صغيرة ثم وضعته على الزيت المغلي وصنعت منه وجبة إفطار شهية، وقالت وهي تضحك ضحكات راجفة سالت دموعها من شدتها: ما أحلى أن أطحن قلوب الرجال بين أسناني هذه.

وتعالت الضحكات ولكم كانت الليلة قصيرة إذ مرت على الممرضات وهن في تسلية وضحك امتد بهن إلى الصباح وذهبن كلهن إلى أعمالهن من دون نوم، ولكنهن مع هذا لم يشعرن بأي تعب أو إعياء.

- 10 -

ساد جو كئيب في سكن الممرضات إذ سرت إشاعة مرعبة تقول إن (سوزي) قتلت رجلاً مريضاً في المستشفى وأنها سرقت قلبه وأنها تحتفظ بالقلب المسروق تحت سريرها.

راح وفد من الممرضات إلى مدير الإسكان يطلبن منه إبعاد (سوزي) عن السكن أو نقلهن إلى مسكن آخر. ولم يشأن أن يخبرن المدير عن السبب، ولكن المدير استطاع بحذاقته أن يعرف طرفاً من الحكاية، وعندها نط الأستاذ، ((حامد) من مكتبه

وراح يجري إلى حيث توجد (سوزي) وأمسك بتلابيبها وقال أعطيني قلب أخي (ماجد). لقد ظللنا نبحث عنه منذ ثلاثة أيام، وأمي لم تذق طعم النوم، وكل بيتنا في غم وهم ما عدا (ماجد) الذي ظل يرقد هادئاً سادراً لا يشغله خبر ولا يطرب لحديث.

وقامت سوزي بتسليم القلب للأستاذ حامد الذي انطلق يجري نحو المنزل ليسلم القلب لصاحبه. وتعاونت الأم مع ابنها حامد لإعادة الجهاز المفقود إلى صدر (ماجد) ولما ربطوا الحبال بعضها ببعض تحرك ماجد صارخاً وقال: موعدي، موعدي، هل ضاع موعدي مع الطبيب ومع الـ. . .

هنا وضعت الأم يدها على شفتي (ماجد) وقالت يا بني سيرزقك الله بزوجة خير منها. لقد غضب أبوها منك وزوّجها وهي الآن في ذمة رجل. ولكن ما رأيك بهند ابنة خالتك. . .!؟

لم يرد ماجد ولم يحر جواباً وتقول الإشاعات إنه حينما استرد قلبه فقد عقله.

أما (سوزي) فقد تم نقلها إلى مسكن خاص بها لأن لا أحد من زميلاتها تطمئن إلى الخلوة معها، خاصة بعدما شهدت كبيرة الممرضات على أن ما ذكرته صديقة سوزي عن محتويات الفطيرة التي تنوي أكلها في الغداء إنما هي كبد مقلية قالت عنها كبيرة الممرضات إنها كبد رجل، وقالت هذه الممرضة ذات الخبرة إن سوزي تظهر ميلاً واضحاً لأكل لحوم البشر. وهذا خطر يهدد كل الممرضات في السكن.

- 116 -

مرّ (طلعت) بسيارته من تحت الجسر وما أن استقام في الطريق العام حتى سمع وحيفاً حاداً من فوق رأسه، وما لبث أن رأى سيارة تطير من فوق سيارته وتحط بهدوء شديد أمامه وتواصل المسير وكأن شيئاً لم يكن. تعجب (طلعت) مما رأى وظل يقسم بالأيمان المغلظة وهو يروي الحكاية لزملائه في العمل، ولكنهم سخروا منه وأجبروه على أن يتحمل فطورهم على حسابه، واضطر طلعت لأن يذهب إلى السوق لشراء الفول والتميز حسب طلبهم، وهناك وهو ينظر إلى (الخباز) يدير أقراص الخبز ما بين يديه والتنور، لاحظ أن الخباز يرمقه بابتسامة متوددة ويقول له: اعذرني لقد جئت هذا الصباح مسرعاً ولما عانقت الجسر انكشف الطريق أمامي وكأنه هوة سحيقة فقررت الطيران من فوق الهاوية، وحطت سيارتي أما سيارتك، وهكذا تراني أنا الرجل الوحيد الذي يصدق حكايتك.

* * *

5 ـ حكاية سحَّارة

الأستاذ المبجل حداد بن حارث الجزاري

السَّلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد. .

أمد الله في عمرك وأدام سعادتك ونوّر حروفك وظروفك، لقد أبهجتني برسالتك وأفرحتني بحرصك على معرفة أخبار الذين تسللوا إلى عالم القلم والأدب، وسوف أجيبك في رسالتي هذه وأبين لك ما بلغني من علم عن الرجال الذين استفسرت عنهم، وأبدأ بالرجل المدعو (ميمون بن قيس).

تقول ـ دام عزك ـ إنك سمعت عن هذا الرجل! وتقول إنه من جماعتنا في (منفوحة) وترغب منا أن نبلغك عن حكايته. والحقيقة أنني لم أر هذا الرجل ولم أشاهده قط ولم أجد أحداً يعرفه من إخواننا في (منفوحة) وقد سألت عنه كل رجال الحي فأنكروا هذا الاسم. وهنا رابني الأمر وأحسست أن في الحكاية ما يثير ويريب فذهبت أول ما ذهبت إلى دكاكين العقار أسألهم إن كانوا قد أجّروا رجلاً بهذا الاسم أو باعوا عليه أو اشتروا منه وكان ردهم بالسلب ونصحوني أن أسأل (العمدة) فذهبت إلى المسجد الذي يصلّي فيه العمدة وسألته عن هذا الرجل، مثلما

سألت إمام المسجد وجماعة المصلين، وكلهم أكدوا أنهم لا يعرفون هذا المخلوق وأنهم لم يشاهدوه في صلاة ولا في أي مناسبة للجماعة مثل الزواجات والأعياد وحضور الجنائز.

وحينما خرجت من المسجد لحق بي غلام كان ينصت إلى حديثنا مع الإمام والعمدة وقال لي إنه سمع به في المدرسة وأن بعض المدرسين ذكروا هذا الاسم، ولقد ذهبت إلى إدارة هذه المدرسة واجتمعت مع المسؤولين فيها، وبذل المدير والمدرسون جهداً كبيراً ـ جزاهم الله خيراً ـ في البحث في سجلاتهم وأوراقهم ولكنهم لم يجدوا لهذا الاسم (قيس بن ميمون) من أثر في أي من سجلاتهم، حتى إنهم فتحوا لي ملفات مدرسة (محو الأمية) وملفات المنقولين والمفصولين ولم نجد لهذا الاسم من أثر.

وظللت أسأل عنه كل صغير وكبير من أهل منفوحة ولم أجد سوى نتف من أقاويل منها أن أحدهم ذكر لي أنه سمع عن (قيس بن ميمون) وسمع أن له خرابة مهدمة على طرف (منفوحة) وقال آخر إنه يعرف أن ابن ميمون هذا مصاب بالعمى الليلي، وأنه يعشق امرأة تدعى (هريرة) ولقد استغربت قوله هذا وأزعجني هذا الادعاء المشين عن عشق وعن فاحشة معلنة، وعن خرابة في طرف الحي، غير أن أحد الشباب الصالحين أبلغني أن هريرة اسم لقطة كان قيس بن ميمون يحتفظ بها في خرابته، ولكن شاباً آخر ردّ عليه وقال إن (هريرة) اسم لجنية يدّعي قيس أنها تلقّنه الأشعار.

وكثر كلام الشباب عن هذا الرجل صاحب الخرابة وصاحب هريرة الجنية، هذا الرجل الذي لم يره أحد ولم يتعامل معه أحد من أهل منفوحة والذي يبدو أنه مصاب بالعمى الليلي غير أن مستشفى العيون الذي لا يبعد عنا كثيراً أفاد أنه لم يستقبل مريضاً بهذا الاسم.

ولم يك مني أمام هذه المعلومات المريبة سوى أن اتصل بمدير الشرطة وأطلب منه أن يبحث عن هذا الرجل ويلقي القبض عليه اتقاء لشره ومحافظة على الناس منه إذ يبدو أن به مساً من الجنون أو أنه في الأقل رجل مثير للشك.

وهذا هو كل ما وجدته جواباً على سؤالك عن هذا الرجل.

أما سؤالك عن أحد أبناء (حجر بن الحارث) فأنا مثلك على غاية من الاستغراب والتحسر فهذا الرجل حجر بن الحارث رجل فاضل له مكانته السامية وموقعه المبجل، وكلنا نحبه ونوده ونقدره ولكن الله ـ جلت حكمته ـ ابتلاه بولد عاق شقي، كثرت عيوبه وتفاحلت معاصيه، خرج عن آداب العائلة وأخلاق المجتمع واشتهرت سفاهاته ودنيّاته، ولقد طرده أبوه فهامَ على وجهه هو وأشرار صعاليك معه، يقول صديقنا وأستاذنا عبد الملك بن قريب إن هؤلاء الصعاليك يقولون أشعاراً فيها فسق وتهتك ويدعيها ابن حجر لنفسه وتشيع بين القصّر وصغار العقول يحفظونها ويرددونها على ما فيها من سفاهة وبذاءة. وهذه هي سيرة (ابن حجر) المطرود المنكود سيرة سكير نكير هائم آثم هو وصعاليكه الغاوون وهو أميرهم في الدنيا وقائدهم إلى النار.

هذا هو صاحبك الذي سألت عنه، ولقد ابتليت ديار إخواننا في الجنوب بهذه الأعاجيب البشرية، وقد حدثنا أهلنا في وادي الدواسر عن رجل معتوه يعيش في جبل (التوباد) ملأ الأرض تشهيراً بامرأة صالحة محصنة، آذاها في بيت أهلها وما زال يؤذيها في بيت زوجها ويذكر اسمها الصريح في أشعاره وأوهامه، وكل يشهد بجنونه وبقلة عقله ويعيش طليقاً ويشيع شعره بين ضعاف العقول يرددون أبياته وغزله بالسيدة المحصنة ويتسامرون بأخباره وسواقطه.

وسمعنا ـ أيضاً ـ عن رجل اسمه (عمر المغيري) يعيش في أطهر بقعة وينتسب إلى أشرف قوم ولكنه ـ مع هذا ـ صار عنواناً على السفاهة وسلاطة اللسان يتعرض للمحارم ويجاهر بالتعريض، وإذا كان الناس يذهبون إلى بيت الله للصَّلاة والعبادة والطواف تقرباً لله فإن هذا المغيري يذهب للتعرض للمؤمنات المحصنات المصليات الطائفات. وقد شاع خبره وتعالت حكاياته وتواترت أشعاره، إلى درجة أن صديقنا وأستاذنا عباس محمود العقاد كتب عنه كتاباً سماه (شاعر الغزل). وكم عجيب أن رجلاً مشهوداً له برجاحة العقل وعميق البصيرة يكتب عن شخص سفيه ماجن، ولكن الشكوى لله.

هذه أخبارنا أسمعناك إياها فماذا عن أخباركم.

أخوكم

طابع بن جعفر المصحصي

* * *

6 ـ حكاية سحّارة

ـ 1 ـ

خرجت يوم السبت مسرعاً. فقد كنت حريصاً على أن أثبت للسيد ناظر المدرسة أنني لست مهملاً ولست ـ كما يظنني ـ رجلاً لا أهتم بمسؤوليتي الأخلاقية والوظيفية.

كانت هذه نيتي حينما تناولت إفطاري بسرعة ولبست ملابسي وأنا أهبط من سلم الدار، ولم يك في حسباني قط أي شيء مما حدث في ذلك اليوم العجيب، يوم السبت الأول من نيسان 1994.

ـ 2 ـ

كنت أقود سيارتي بسرعة شديدة متجهاً عبر شارع (التخصصي) وحينما اقتربت من جسر (العروبة) لاحظت أن السيارات تعود القهقرى وكأنهم يهربون من شيء تحت الجسر، ولقد تعجبت من حركتهم هذه ولم أفكر قط أن أفعل مثلهم

وواصلت المسير لأجد نفسي وجهاً لوجه مع بحيرة ماء تمتد من تحت الجسر إلى مد البصر جنوباً. كانت ماء صافياً وشمساً مشرقة وزرقة خلابة. وطار عقلي ما بين الفرح بمنظر البحيرة والتوجس من التأخر عن موعدي في المدرسة، وما يمكن أن يقوله السيد ناظر المدرسة عني وعن إهمالي. ولهذا فإنني قررت تحويل سيارتي إلى (قارب) بحري أخوض به غمار المياه فأستمتع برحلة بحرية جاءت هبة لي من الله في هذا الصباح المبارك. وفي الوقت ذاته أقطع الطريق بسرعة معقولة لأصل إلى المدرسة في الوقت المحدد. غير أن رجال المرور قابلوني على مدخل البحيرة ـ تحت الجسر ـ وأمروني بالعودة ونهروني بشراسة وغلظة حينما حاولت التفاهم معهم، فما كان مني إلاَّ أن عدت القهقرى كغيري من أصحاب السيارات الذين عادوا من دون جدال ولا سؤال.

ـ 2 ـ

احتجت إلى عبور شوارع فرعية كثيرة لكي أعود إلى مساري الطبيعي في شارع (التخصصي) وحينما وصلت إلى الطرف الجنوبي من الشارع لاحظت وجود شاطىء جميل تغطيه الرمال الحمراء وتحفه مياه البحيرة الزرقاء الصافية وينتشر عليه الصيادون والسباحون وجماعات من الأطفال الذين يلعبون ويطربون على هذا الشاطىء الساحر، شاطىء خلاب في وسط شارع التخصصي في قلب مدينة الرياض وكأنه **(حلم الرمال الهاجعات على الظما)**

حسب عبارات أبي ريشة.

أوقفت سيارتي وانطلقت فرحاً محبوراً ألاحق حبات الرمل وذرات المياه المتطايرة مع نسمات الهواء الندي: هواء ندي في قلب الجفاف...!!

تركت رئتيَّ تنطلقان مثل انطلاق قدمي ورحت أخوض في المياه وأحاول اصطياد السمك. ولقد أفلحت في اصطياد سمكة شقراء (أو حمراء) أظنها من نوع (الصافي) كما يسمونها في الخليج.

ولقد غالبت نفسي وغالبتني كثيراً كي انتزع جسدي من هذا الندى البهي وأتوجه إلى المدرسة ومعي السمكة (الصافية).

ـ 3 ـ

كان التجهم والغلظة والجفاف هو ما لقيته من السيد ناظر المدرسة الذي لم يصدق حكايتي ولم يطرب لها ولم يبتسم لسماع الخبر. وأمرني بالتوجه فوراً إلى الفصل والشروع بتدريس التلاميذ، وأخذ السمكة مني وأعطاها للفراش كي يعطيها للقطط التي تحوم في الشارع الخلفي للمدرسة.

ولقد سمعته يقول للفراش إن هذا المجنون اشترى هذه السمكة من أحد محلات بيع الأسماك المنتشرة في شارع التخصصي. وسمعت الفراش يرد عليه قائلاً: نعم يا أستاذ إن مجنوننا هذا يبتكر حيلة لكل حكاية من حكاياته لكي يبرر تأخره

عن الدوام وكسله.

سمعتهما يقولان ذلك بصوت مرتفع وصلني صداه وأنا أدخل على الطلاب.

ـ 4 ـ

كانت مادتي مع الطلاب هي مادة (التعبير) ولذا فقد طلبت منهم أن يكتبوا موضوعاً عن (بحيرة) في الرياض، وحينما شرعت بإيضاح فكرة الموضوع وتحميس عقول الطلاب للفكرة واستثارة خيالهم، إذا بي أفاجأ بالسيد الناظر يدق باب الفصل ومعه ضابط مرور، ونظر إليّ السيد الناظر بعيون ملؤها السخرية والضحك وقال لي: هذا الأخ الضابط جاء ليأخذك إلى مركز المرور لأنهم وجدوا سيارتك واقفة في وسط شارع التخصصي مما تسبب في إعاقة المرور وتعطيل السير. ولقد حاولت أن أشرح للسيد الناظر أن سيارتي لم تكن في وسط الشارع ولكنها كانت على طرف الشاطىء الرملي قبالة البحيرة النابتة تحت جسر (العروبة) في شارع (التخصصي). ولكن السيد الناظر اكتفى بالإشارة إلى الضابط وقال له: خذه إلى المركز وحاولوا أن توافونا بتقرير كامل عن الحادثة لنرفعه إلى الوزارة.

ـ 5 ـ

في مركز المرور وجدت مجموعة من الضباط حاولت أن أروي لهم قصتي وقصة البحيرة ولكنهم انفجروا في وجهي ما

بين ضاحك وساخر ومؤنب ما عدا رئيسهم الذي أخذني إلى مكتبه وخلا بي وقال يا بني: هناك أشياء يحسن بنا ألاّ نكشفها للناس.. إنها قصصنا الخاصة وفلذات أرواحنا مما لا يصدقه سوانا.. إنها من المضنون به على غير أهله.

لقد فرحت بكلام السيد الضابط ووجدته ينزل عليَّ برداً وسلاماً وتعجبت أن البدلة العسكرية والنجوم الحديدية لم تحجب عنه نور الحقيقة وصدق البصيرة، وتمنيت لو أنه جاء هو مكان السيد الناظر ليدير المدرسة.

ولقد شكرت السيد الضابط وودعته عائداً إلى المدرسة وفي طريق خروجي من المركز رفعت يدي مسلماً ومودعاً لمجموعة الضباط الذين تجمعوا حول طبق كبير من الفول وحوله طرائق التميز وصحن فيه طعام لعله (المعصوب) أو (الهريسة) نظروا إليَّ نظرات فيها أشياء من التندر والسخرية، وقال لي أحدهم: تفضل كل معنا، ولكن أحد زملائه رد عليه وقال: اتركه إنه مستعجل كي يصطاد سمكاً من بحيرة التخصصي. بينما ترامى إلى سمعي همسة لأحدهم يصحح جملة صديقة ويقول: بحيرة شهار.

وحينها جاء رئيسهم وجرني من يدي وقادني إلى الباب الخارجي وسلمني مفاتيح سيارتي وهو يربت على كتفي ويقول لي: مع السلامة أيها المضنون به على غير أهله.

* * *

7 ـ حكاية سحّارة

«الشطر الثاني من حكاية المعلم مسعود»

ـ 6 ـ

عدت إلى المدرسة ودخلت مباشرة إلى قاعة الفصل، وطلبت من التلاميذ كتابة موضوع التعبير عن مشاهداتهم في الإجازة الصيفية الماضية. وجلست أرقب الأنامل الصغيرة تخط وتمحو على الورقات، وكان كل شيء في الفصل يمر بشكل عادي عدا شيء واحد فحسب، وذلك هو وجه التلميذ المهذب جداً والذكي جداً (سمير)، لقد كانت قسمات وجهه ترتفع وتهبط وكأن مضخة هوائية قد غرست من تحت سحنة وجهه. ولقد أثارني هذا المنظر مما دفعني إلى الذهاب نحو ماصة سمير واستراق النظر إلى ورقته حيث وجدته يكتب بانفعال هائج عن منظر (بحيرة) تحت جسر (العروبة) وسط شارع (التخصصي). وهنا تحركت كل حواسي الإنسانية والتربوية فأخذت (سمير) إلى طرف الفصل وهمست في أذنه قائلاً: **(يا بني هناك أشياء يحسن بنا ألا نكشفها للناس. إنها قصصنا الخاصّة وفلذات**

أرواحنا مما لا يصدقه سوانا.. إنها من المضنون به على غير أهله).

قلت هذا الكلام وتركت سمير يعود إلى ماصته بعد أن أوصيته أن يكتب عن الإجازة الصيفية. ولم يرد عليَّ سمير بشيء سوى أن قال لي: أبشر يا أستاذ. وهذا ما جعلني أطمئن على سمير وعلى (راحته).

ـ 7 ـ

مرّت الأيام ثقالاً حتى شارفنا نهاية العام الدراسي وبدأنا الاستعداد للامتحانات النهائية ولشهور الصيف البليدة، وكان كل شيء يوحي بالضجر والعادية والبلادة، وكان الوجه الوحيد الذي تبدو عليه علامات الفرح هو وجه السيد ناظر المدرسة الذي ظل يمارس هوايته بالتجول في الممرات وعلى وجهه ابتسامة تعلن عن رضاه وعن سعادته بهذه البلادة التي تخيم على كل معالم المدرسة وناسها.

وقبل بداية الامتحانات بيومين فوجيء كل من في المدرسة بوجود لوحات معلقة على مشارف الطرقات وعليها كلمات ضوئية تبشر بقرب إعلان اسم المدرّس المثالي في المدرسة. وهذا عمل لم تتعود عليه المدرسة ولم يسبق له من سابقة.

وبعد ساعات من هذا الإعلان الاحتفالي المفاجيء وقع ما لم يكن في الخيال، لقد شعت كل اللوحات باسم المعلم مسعود.

أنا. . . ؟!

معلم مثالي. . . ؟!

ـ 8 ـ

كان فرحي فوق كل طاقاتي وأكبر من كل حدودي، ولذا فقد انطلقت أجري وأركض في الممرات ضاحكاً ومبتهجاً أعانق من يمر بي ومن يشيح عني ووجدت نفسي أنط وأقفز من فوق الكراسي والنوافذ وأتسلق الجدران حتى خرجت إلى فناء المدرسة ونظرت إلى شجرة السدر الكبيرة التي تملأ الفناء وترتفع شاهقة إلى عنان السماء وأحسست بجسدي يشف ويشف وإذا بي أطير محلّقاً وأنط من غصن إلى غصن وسط شجرة السدر الشاهقة وصرت أطير بين الأغصان حتى بلغت ذروة السدرة ووجدت الفضاء أمامي وكأنه حضن حنون يدعوني إليه ورحت أسبح في الهواء جذلاً محبوراً ولمحت بجانبي جسداً صغيراً يطير معي وتتعالى منه الضحكات والزغردات، ونظرت في وجهه فإذا هو (سمير)، يطير معي ويفرح لفرحي، وظللنا في الأعالي بضع دقائق عدنا بعدها إلى (السدرة) قافزين عليها غصناً غصناً إلى أن هبطنا في الفناء حيث تجمع طلاب المدرسة يطلبون مني ومن سمير تعليمهم الطيران من فوق (السدرة).

ـ 9 ـ

لقد جرت الأمور بتلقائية تامة ولم نكن نقصد إحراج السيد الناظر أو التآمر عليه، وإني لأقسم بالله العلي العظيم أنني ما

أردت قط أن أتسبب على السيد الناظر بأي شيء مما حدث بعد ذلك. ولقد تأسفت كثيراً حينما جاءتني الأخبار بأن الناظر قد استقال من العمل من مدرستنا، كما أنني تألمت كثيراً لما يتناقله الناس عن ناظرنا العزيز الذي صار يقول إنه لا يريد أن يكون مديراً لمدرسة المجانين.

ـ 10 ـ

مر حتى الآن بضعة أشهر ومدرستنا من دون ناظر ولقد سمعنا أن كل المرشحين اعتذروا بسبب ما سمعوه من كلام عن مدرستنا أو مدرسة المجانين كما صاروا يسمونها. ولكن جاءتنا أخبار يبدو أنها أكيدة حيث تواترت الإشاعات وتوحدت حولها، وهي إشاعات تقول إن شاباً من الطائف قد ترشح لمدرستنا ويُقال إنه ثقفي له خبرة في التعليم. وحينما كان طالباً في الكلية حصل على امتيازات عديدة منها وسام الشرف ووسام (طلاع الثنايا) وجرى تتويجه بأحسن كنية تملكها الكلية وهي كنية (ابن جلا)، وهذا ما تقوله الإشاعات وكل ذلك أخبار طيبة ومشجعة لولا أننا سمعنا أمس أن الأستاذ (طلاع الثنايا) متخصص بإدارة المجانين، وهذا أزعجنا بعض الشيء، ولكننا على الرغم من هذا نشعر بشيء من الفرح ونتطلع إلى عهد بهيج مع الأستاذ الثقفي (طلاع الثنايا) فربما يتحقق لمدرستنا ما تحلم به من التسامح والحرية على يد (ابن جلا) لا سيما وأنه رجل متخصص في تعليم الصغار وله خبرة معهم في بلدته ومسقط رأسه.

8 ـ حكاية سحّارة

ـ 1 ـ

أنا مسعود بن عبد القيوم. . .

معلم في مدرسة الخنساء الابتدائية، وهذا اسم غريب ـ كما تلاحظون ـ إذ ليس من المعتاد أن تحمل مدارس الأولاد اسماً لأنثى. ولقد كان هذا سبباً لعزوف كثير من زملائي المعلمين الجدد عن التوجه للعمل في هذه المدرسة لأنهم لا يريدون أن يكونوا تحت مظلة امرأة، حتى وإن كانت شاعرة بارزة وذات تاريخ مجيد.

أما أنا فقد فرحت وطربت كثيراً حينما صار توجيهي الوظيفي إلى هذه المدرسة. ولذلك سبب عميق يتصل بي شخصياً، حيث إن عائلتنا تعود في أصولها إلى سلالة نسب تبتدىء من لدن الخنساء الشاعرة، أم الشهداء، وكان والدنا الأول هو أحد أبناء الخنساء الذين استشهدوا في القادسية. ومن المعلوم أن جدتنا رضي الله عنها لم تبكِ عليهم حينما علمت بموتهم ولم تسفح عيناها ولا حتى دمعة واحدة عليهم.

ولقد شاع بيننا في الأسرة أن جدتنا الماجدة قد صرفت كل ما لديها من دموع على خالنا معاوية وخالنا صخر، ولم يتبق في عينيها أي دمعة لأولادها.

ولقد ورث أفراد أسرتنا هذه الخاصية الوراثية عن جدتنا الخنساء، وجاء كل أجدادنا ومن تلاهم من عائلتنا من دون دموع، ولذا فإن عيوننا ناشفة دائماً لا يقطر منها دمعة.

وكان أخي الأكبر يقول إذا سمع أم كلثوم تغني (أراك عصيَّ الدمع) يقول إنها تقصد عائلتنا.

وهذه ليست مزية ـ كما قد يبدو من ظاهر الأمر ـ ذلك لأننا نحتاج إلى الدموع في بعض الأحيان ونعجز عن توفيرها. ولن أنسى أبداً أنني وأنا صغير حلمت حلماً مزعجاً وقمت من منامي مضطرباً وزاد عليَّ الاضطراب واستمر معي ولم أجد سبيلاً للهدوء أو الراحة، وحينما شرحت الحالة لأمي قالت لي إنني احتاج إلى شيء من الدموع لكي تغسل بصري وتنظفه من آثار ذلك الحلم الذي كانت بقاياه عالقة في حدقات عيوني. ولذا فقد اقترحت عليَّ أن أذهب إلى الجيران وأطلب منهم أن يعيرونا شيئاً من الدموع. ولكنني بدلاً من أسأل أمهم الطيبة سألت ابنهم الأكبر ـ وهو ولد شرس فيه جفاوة وغلظة ـ وحينما طلبت منه شيئاً من الدموع يسلفني إياها ضحك ضحكة مجلجلة وقال: أبشر، أبشر سأمنحك دموعاً يسيل لها الوادي الكبير في الأندلس ويسيل لها وادي الرمة ووادي العقيق، وأخذ عصا غليظة كانت خلف الباب وضربني ضرباً مبرحاً وقال إذهب إلى أمك وامنحها

هذه الدموع هدية وتحية من ابن جيرانكم، وقال لي أيضاً: إذا شئت المزيد من هذه الهدايا فتعال إلي ولتبشر بالمزيد.

ولقد تعلمت من تلك الحادثة أن اعتمد على نفسي في أي حاجة احتاجها من خصوصياتي الإنسانية.

ولقد مرّ عليَّ زمن عصيب لم أعرف فيه كيف أحل مشكلتي هذه، وصار عجزي عن البكاء يسبب لي أزمة نفسية واجتماعية، وصرت أخاف على جسدي من الجفاف والنضوب، وزاد من حدة المشكلة عندي أنني أعيش في مدينة جافة شديدة الجفاف مما جعل جسدي أشبه ما يكون بصناديق الشاهي الخشبية، وكنت أعالج ذلك بالإكثار من شرب الماء وإدامة النظر إلى الآنية المملوءة بالسوائل.

ـ 2 ـ

زاد إحساسي بمسألة الدموع وفقداني لها وصرت أغبط بطلات المسلسلات العربية حينما تنهمر الدموع من عيونهن وتغطي شاشة التلفزيون، وكان هذا هو أكثر المناظر التمثيلية شداً لي وإثارة لاهتمامي. ولقد أرسلت رسائل عديدة إلى منتجي هذه المسلسلات أطلب منهم تزويدي بهذا الدواء السحري الذي يفجر الدموع في عيون الممثلات، وسألتهم مراراً أن يأخذوني عندهم ليدربوني على إسبال الدموع، ولكن رسائلي ونداءاتي ضاعت دون جواب.

ـ 3 ـ

ظل البحث عن مصادر الدموع هدفاً شخصياً خاصاً جداً

لي، ويبدو أنني الوحيد في عائلتنا الذي أهتم بهذه المسألة. ولم أجد أحداً آخر من أسرتنا يشاركني هذا الهم. بل على العكس مني تماماً، إذ يرى أفراد عائلتنا أن نضوب الدموع من عيوننا مفخرة كبرى وميزة عظيمة يجب الاعتزاز بها والتفاخر والتباهي بها بين العشائر. ويرون أن جدتنا الخنساء قد تركت لنا ميراثاً عظيماً لا يجوز التفريط به، ولقد نقش بعضهم عبارة (أراك عصي الدمع) على مداخل منازلهم في مباهاة صريحة بهذا الإرث الجليل ـ حسب تعبيرهم ـ.

أما أنا فلم أرَ وجاهة هذا التباهي بل إنني أحس إحساساً صادقاً أن خلو عيني من الدموع يرهقني عقلياً ويزعجني نفسياً.

ـ 4 ـ

ضبطتني أمي يوماً وأنا أحرر رسالة إلى إحدى الممثلات ورسالة أخرى إلى النائحات أسألهن أن يمنحاني دروساً خصوصية في التباكي وإسالة الدمع، وكان هذا سبباً لمشادة حزينة مع السيدة الوالدة لم تنته إلاً بعد أن اقنعتني حفظها الله بأن أستعين بالكتابة وأكدت لي أن الكلمات هي دموع اللغة، وأن الشعر بكاء فصيح. ونصحتني باستخدام اللغة والكتابة لتسيل عواطفي عبر المداد والورق.

وهذا هو ما جعلني اكتب حكاياتي وأودعها على الصفحات إلى أن يأتي قارىء أو قُراء ينظرون فيها ويعرفون حكاية ابن الخنساء.

* * *

9 ـ حكاية سخّارة

ـ 1 ـ

مرّ على مدرستنا فترة طويلة قبل أن تتشرف بالناظر الجديد. وكما تعلمون فقد ترددت الإشاعات كثيراً حول الأستاذ (طلاع الثنايا) أو (ابن جلا) كما هي كنيته، وكانت كلها تشير إلى أنه هو الناظر الجديد، غير أن سعادته عدل عن رغبته في مدرستنا حسبما سمعنا وآثر الذهاب إلى مدرسة في أرض السواد، ولقد سمعنا عنه هناك أخباراً كثيرة جعلتنا نحمد الله إذ سلمت مدرستنا منه ومن حكاياته. ولقد جاء إلينا أستاذ لم نسمع عنه من قبل، وهو رجل وقور هادىء لا يحب الكلام ويرى أن قلّة الكلام دلالة على رجاحة العقل، ولقد صار (الصمت) شعاراً يحث عليه السيد الناظر ويندبنا إليه ولا يضيق من شيء مثل ضيقه من صراخ الطلاب أثناء الفُسح، ولذا فقد اخترع كمامات خاصة يضعها على أذنيه كي لا يسمع أصوات التلاميذ، ووضع موظفاً بجانبه ليراقب الهاتف وليضبط له الوقت الذي يمكنه فيه نزع الكمامات.

ولقد حدثني مرّة عن إعجابه الشديد بشهرزاد لأنها لا تتكلم إلاّ حينما تهجع الكائنات وتهدأ الحياة من صخبها، وإذا ما تيقظت الحياة سكتت شهرزاد، ولقد قال لي إنه لم يتسلم إدارة مدرستنا إلاّ لكي يسعى إلى تحقيق نظريته التربوية في (الصمت) وذلك بأن يدرب الطلاب على الصمت إذا انبثق الضياء، لأن (الضياء) في نظر سعادته يكفي لكشف وإظهار مراد النفوس، ونظرة واحدة إلى الوجه تغني عن السؤال والجواب، ولا حاجة إلى الكلام في رأي سعادته إلاّ وقت الظلام حيث يحل اللسان محل العينين في تلمس علامات الحياة والأحياء.

ـ 2 ـ

ظل الأستاذ (حسون) مشغولاً بنظريته في الصمت، وصار يصرف وقته كله داخل معمل لغوي خاص يجرب فيه علاقة الصوت بالضوء والعتمة، ولذا فإنه ترك لي تصريف أمور المدرسة والطلاب. ولقد أوقعني هذا في حرج شديد حيث زادت عليّ إلحاحات التلاميذ بأن أعلمهم بعض المهارات التي لا توجد في المنهج الدراسي، وظلوا يذكرونني باليوم الذي حلقنا فيه فوق شجرة السدر، وساعدهم الفتى (سمير) حيث اقترح عليّ أن يشاركني في تدريب الطلاب على الطيران وقام بتحريض الطلاب الصغار وجعلهم يناشدونني ويطالبونني بالموافقة وزادت رجاءاتهم وتوسلاتهم زيادة لم أجد معها بداً من الموافقة شريطة أن يتم ذلك وقت العصر حينما يكون الأستاذ (حسون) بعيداً عن المدرسة

ـ 3 ـ

بهذا انضبطت أمور مدرستنا ففي الصباح تسود نظرية سعادة الناظر في الصمت المطبق والاكتفاء بقراءة الوجوه وعلاماتها. وفي المساء (عصراً) أجتمع أنا وسمير من جهة والتلاميذ من جهة ثانية حول شجرة السدر الضخمة التي تملأ فناء المدرسة وتبدأ دروس تعليم التلاميذ الطيران حيث يتسلق الواحد منهم أغصان السدرة واحداً واحداً فإذا بلغ الذروة أطلق بصره إلى السماء وتنفس بعمق حتى يملأ صدره ورئتيه ثم يطلق لسانه بصرخات متتابعات حتى يجد جسده قد شف ورهف وحينها تتساوى نداءاته مع ترددات أنفاسه فيطير تلقائياً وكأنما هو عصفور مغرد.

ـ 4 ـ

مرّت أيامنا جميلة وهادئة لا يكدرها سوى زيارات المفتشين المباغتة. وكنا قد وضعنا عدداً من الاحتياطات لتلافي الحرج مع أولئك المفتشين، وخصصنا بعض التلاميذ للوقوف على مشارف الطريق الموصل إلى المدرسة لينذرونا باقتراب أحد الغرباء، وكان هذا إجراءً وقائياً نافعاً لولا أن حدث في إحدى المرات أن تربص بنا أحد المفتشين واختبأ على سطح إحدى العمارات المجاورة، وهاله ما رأى في تلك العصرية، حيث شاهد تلاميذ صغاراً يتطايرون فرحين جذلين من فوق شجرة السدر الباسقة، وأخذ صوراً للمنظر أرفقها بتقرير قدمه إلى الأستاذ (حسون) ناظر مدرستنا. فقامت قيامة السيد الناظر وغضب غضباً شديداً

واتخذ قراراً بأن يتولى هو بنفسه الإشراف على أنشطة الطلاب في العصر. وكان أول عمل قام به هو أن اشترى كمامات مطاطية يضعها على أفواه الطلاب لكي يمنعهم من (الصراخ)، لأن الصراخ مدعاة للجنون، وهذا هو ما جعل عقول الطلاب تخف وتضمحل فتضعف أجسادهم وتتلاشى إلى درجة أنها صارت تتطاير هباء من فوق السدرة ـ كما يقول ويؤكد الأستاذ حسون ـ.

ـ 5 ـ

زاد ضغط السيد الناظر علينا في مسألة الكلام وخطره على الأبدان، وصار يعرض صور التلاميذ وهم يطيرون بوصفها شاهداً على خطورة الانفعال اللفظي على الآدمي. وصار يحثنا على قبول نظريته في (الصمت)، وألزمنا بتدريس النظرية في المنهج التعليمي وتدريب الطلاب عليها حتى صار الجميع يتصرفون وكأنهم خُرس بُكم، وصارت الدرجات تمنح حسب الامتناع عن الكلام، وكل مرة يغلط فيها أحد الطلاب ويتفوه بكلمة فإن كل كلمة بناقص علامة، والأبكم هو من ينال درجة الامتياز، وفي ذلك الفصل لم يرسب سوى الطلاب الذين تكلموا وكان عددهم ثلاثة من بين أربعمائة طالب. وهذا ما جعل الأستاذ الناظر يعلن عن نجاح نظريته وعقد حفلاً كبيراً مارسنا جميعنا أثناءه الصمت المطبق واكتفينا بتبادل النظرات والإيماءات.

* * *

10 ـ حكاية سخَّارة

ـ 1 ـ

ضاق صدر مدرستنا. . .

هذه هي الجملة التي احتلت رؤوسنا على مدى أسابيع، وذلك بعد أن لاحظ الجميع أن ممرات المدرسة أخذت تضيق وبدأت المسافات ما بين جدار وجدار تتقلص، حتى إن فناء المدرسة الفسيح عادة والمفتوح الصدر صار يبدو ضيقاً حرجاً.

ولم يكن أحد منا يهتم بهذه الملاحظة التي كانت تبدو في البداية وكأنها أمر عادي لا يلفت الانتباه، ولا يثير الحفائظ.

إلاَّ أنه ومع مرور الزمن وتفاحل أمر هذه التقلصات واشتداد ضيق الممرات وتقلص مساحة الفناء، فإننا صرنا نجد حرجاً ومشاكل من المرور عبر دهاليز المدرسة خاصة في فترات تغيير الحصص وخروج أفواج التلاميذ من فصولهم، حيث تتراكم الأجساد البشرية على بعضها في مساحات ضيقة يصل الضيق فيها إلى حدود الاختناق عند مفارق الممرات.

ولقد أدى بنا هذا الوضع إلى التفكير في تعديل مواعيد خروج الطلاب من فصولهم لكي نتلافى هذه الاختناقات المرورية داخل مبنى المدرسة.

ـ 2 ـ

كان اجتماعنا مع سعادة الأستاذ حسون، ناظر المدرسة في يوم الأربعاء الخامس عشر من شهر صفر الخير مخصصاً لبحث هذه المسألة: مسألة تعديل مواعيد الحصص وتوزيع الفترات، ولقد دام الاجتماع ساعات مديدة استعملنا فيها كافة الوسائل الكفيلة بمواجهة مشكلة الممرات. ومن الغريب أننا لم نتساءل ـ وقتها ـ عن السبب وراء هذا التغير المفاجىء في سيكولوجية مبنى المدرسة وفي نفسية الجدران والأعمدة. واكتفينا بمحاولة معالجة مرور الطلاب عبر هذه السرادقات الضيقة التي صارت الآن تشبه أنابيب مجاري المياه. وقد كانت ـ من قبل ـ باحات واسعة هائلة.

وبعد انتهاء الاجتماع والاتفاق على جداول المواعيد انصرفنا إلى بيوتنا حيث ألهتنا إجازة نهاية الأسبوع عن المدرسة وإشكالاتها، وحينما عدنا إلى المدرسة صباح يوم السبت الثامن عشر من شهر صفر فوجئنا أن الفصول ـ أيضاً ـ قد تقلصت مساحاتها. والقاعة التي كانت تمتد خمسة عشر متراً في طولها وسبعة أمتار في عرضها صارت على أقل من نصف هذه المساحة، وتراكمت الكراسي داخل القاعة وتلاصقت وتراكب

بعضها على بعض، وتلاصقت النوافذ التي كان يفصل فيما بينها بعض أمتار.

وهنا أحسسنا بالخطر وبالضيق وبالقلق. وتداخلت النظرات والوساوس والشكوك فيما بيننا. وران علينا صمت مطبق عجزنا معه عن التكلم وعن التفكير. ولم يعد لفكرة تعديل مواعيد الحصص من معنى، حيث بلغ الضيق كل قاعات المدرسة وأركانها وممراتها، حتى إن السقف ذاته تهابط ودنا إلى الأسفل إلى درجة أن رؤوسنا صارت تلامس السّقف وتصطدم به أحياناً.

ـ 3 ـ

ضاق صدر مدرستنا...

هذا ما قاله (سمير) وهو يدخل إلى قاعة فصله صباح ذلك اليوم، ولقد تظاهرت بأنني لم أسمع ملاحظته هذه ولم أنتبه إليها، وظللت واقفاً على مدخل قاعة الفصل عاجزاً عن قول أي شيء أو فعل أي شيء. وكان الطلبة يدخلون واحداً تلو الآخر صامتين ساكتين ـ حسب القاعدة التي دربهم عليها سعادة الناظر وألزمهم بها ـ.

كان الصمت هو سيد الموقف وهو شعار المدرسة وهو منهج العمل... هذا هو ما تقتضيه النظرية الجديدة للأستاذ حسون. ولقد كان الصمت ـ أيضاً ـ هو حالتنا ذلك اليوم.

- 4 -

كنا صامتين ساكنين، والضيق يأخذ أغلى ما في مدرستنا وهو صدرها الرحب الفسيح.

وذلك الصدر الفسيح الذي كان عنوان مدرستنا وعلامة وجودها يتلاشى الآن يضيع من بين أيدينا، وليس لنا حول أو طول لكي نوقف حركة الجدران والأعمدة واكتساحها للمكان.

لقد كنت أرقب الوضع وأشاهد التغيرات المفاجئة هذه وينعقد لساني عن مواجهة الحادثة، ولم يشغلني شيء مثلما شغلني الخوف من احتمالات انفجار الطلبة بالأسئلة والتساؤل عما حدث.

وهي أسئلة لو صارت لوضعتني في حرج لا أقوى على الفكاك منه، فأنا لا أعلم كيف حدث هذا (الضيق) ولا لماذا. وأدهى من ذلك وأمرَّ أنني لا أعرف كيف الخلاص من هذه الحالة.

ولقد ظللت وقتاً وأنا على مدخل القاعة مديراً ظهري نحو الطلاب إذ لا وجه لي لأطالع فيهم بعينين عاجزتين ولسان معقود وبصيرة معطلة. ولم يحركني من هذا الجمود سوى يد سمحة هينة من أحد الطلاب امتدت نحوي بصمت وسكينة تستأذنني بمسح السبورة وتهيئتها للدرس الجديد الذي يفترض أن يكون عن (علامات الترقيم) وهو درس يفترض أنه يحدد العلاقات ما بين الجمل والعبارات ويرسم حدود الحركة داخل الكتابة ويعين

على تقرير حالات النطق والصمت ما بين المقروء والمكتوب.

أشرت إلى تلميذي بالجواب وذلك بأن وضعت يدي على رأسي وحككت شعري ثلاث مرّات وهذا معناه نعم امسح السبورة. حسبما درسنا ودربنا أستاذنا العزيز الأستاذ حسون ناظر المدرسة.

* * *

11 ـ حكاية سحّارة

«من أوراق المعلم مسعود»

ـ 1 ـ

لعلي لم أقل لكم من قبل إن مبنى مدرستنا من الطين، وأنا أتذكر هذه المعلومة الآن اعتقاداً مني أن ذلك قد يفسر لنا شيئاً عن حقيقة هذا الكيان. فالطين عجينة طبيعية يتساوى فيها البشر مع المبنى. ولعل ما حدث لمدرستنا من ضيق مفاجىء في مبناها يعود لحالة نفسية يمر بها هذا المبنى وهي حالة تشير ـ بلا ريب ـ إلى تأزم داخلي ضاغط. ومن علامات ذلك أن شكل المبنى الخارجي عادي جداً. عادي في منظره وفي حجمه، ولكن المبنى من داخله ضاق وتضايق حتى صار على حالة من الاختناق والضغط إلى حدّ يثير القلق والخوف.

ولقد ذهبت إلى الأستاذ حسون، ناظر المدرسة وتحدثت معه حول ما طرأ على مبنى مدرستنا من تغيرات محيرة، ولقد وجدت السيد الناظر في حالة من الضياع وفقدان البصيرة، ولقد ازداد خوفي واضطرابي حينما رأيته على تلك الحال. ذاك أنني

كنت أظنه رجلاً رابط الجأش قوي الشكيمة، خاصة حينما يحدث حدث يقتضي رباطة الجأش وصلابة الوقفة.

والأستاذ حسون رجل حكيم ولا شكّ وهو رجل صبور بكل تأكيد. . هذا ما تقوله تصرفاته في سائر الأيام. ولم يكن ينقصه شيء سوى انغلاقه الشديد على نفسه وانصرافه التام عنا. فهو لا يخالطنا كثيراً ولا يتشاور معنا فيما يحزبه من أمر. وكان بحثه في (نظرية الصمت) يأخذ منه كل وقته وجهده. وربما أمضى الليل والنهار داخل المختبر الصوتي يجرب أفكاره ونظريته على الآلات وفي جنح الظلام والصمت المطبق والعزلة القاطعة.

وحينما حلّ بمدرستنا ما حلّ لم يفكر الأستاذ حسون أن يجمعنا ويستأنس بنا ونستأنس به ونتشاور في الأمر. ولم يفكر أحد من المدرسين (أو الطلاب..!) أن يفاتحه في الأمر، لأنهم قد تعودوا على ما سنّه لهم من قواعد في السلوك التربوي التي تقتضي عدم الكلام وتجنب القلق اللغوي والتوترات اللفظية. وكان هذا هو المسلك العام للجميع. وهو مسلك رضيناه وألفناه. لولا هذه الحادثة التي لم تدع لي أنا في الأقل مبرراً لمواصلة الصمت والاستمرار على آداب المدرسة وتعليمات السيد الناظر.

ولهذا فإنني قررت الذهاب إلى مكتب الأستاذ حسون، وذلك بعد أن قطعت كل حالات التردد والتخوف، وصرفت النظر عن كل الاحتمالات السلبية لزيارتي هذه.

ـ 2 ـ

ذهبت إلى مكتبة الأستاذ فوجدت الباب مغلقاً بإحكام شديد. ولم أستغرب ذلك بادىء ذي بدء . . فأنا أعرف حرص الأستاذ على الخصوصية والعزلة والانقطاع . . وقفت عند الباب منتظراً سماع أي حركة من الداخل لعلها تشجعني على طرق الباب، غير أن الوقت طال ومرّ دون أن أسمع ما يوحي بوجود حياة أو أحياء خلف ذلك الباب الذي تقلص حجمه وانضغطت تقاطيعه وبدا وكأنما هو فتحة نافذة لا فتحة باب لأهم غرف المبنى وهي غرفة الإدارة.

ظللت واقفاً على الباب وقد تغشاني الحزن وضربتني الحسرة على هذه الحال التي آلت إليها مدرستنا، وأحسست أكثر وأكثر بما يمر به مبنى مدرستنا من أزمة تعصر روح المبنى وتدك معنوياته.

ها هو الطين يضيق ذرعاً بنفسه وبالطيّان.

ها هي المدرسة تضيق من نفسها ومن درسها.

وها أنذا أقف حائراً خائراً أمام باب مغلق يغطيه الصمت ويعصره الضيق وتدوسه الهموم.

واقفٌ أنا على الباب ـ وفي لحظة صرت لا أدري من فينا الباب . . أهو أم أنا.

هل أنا باب أم بواب . . . ؟!

وهل أنا أمام الباب أم خلف الباب . . . !؟

وإذا صحوت من شفقي وعتمتي فهل سأجد يدي بإزاء جسدي لكي أستعملها لطرق الباب. . . ؟!

يا سبحان الله. . . هل أستطيع حقاً أن اتخذ قراراً شاذاً مثل هذا القرار، وأطرق الباب. . ؟!

ماذا لو أن الأستاذ حسون قد تلاشى وابتلعته الجدران. . . ؟!.

أقول قولي هذا وأنا لا أعلم عما إذا كان الأستاذ حسون موجوداً فعلاً داخل هذه الغرفة أم لا.

في الأيام الخوالي كنا نستعين بالعم عباس فراش المدرسة لكي يبلغنا عن الناظر وهل هو موجود أم لا. أما وقد انتقل العم عباس إلى مدرسة أخرى بعد أن تبرم منه الأستاذ حسون وقال عنه إنه ثرثار مهذار ناقص العقل لأنه يتجرأ على الكلام في مدرسة جعلت الصمت شعارها. ولم يكن بالإمكان تعليم العم عباس نظرية الصمت لأنه أمي لا يحمل أي تأهيل علمي مما جعله لا يدرك النظرية السيميائية التي اخترعها السيد الناظر.

تذكرت العم عباس في هذه اللحظة وتمنيت أن لو كان حولي لأعرف منه إذا كان الأستاذ الناظر موجوداً.

لم أجرؤ على طرق الباب، وظللت واقفاً على ذلك الباب يحيط بي الضيق من كل مكان، ومن ورائي الصمت ومن أمامي باب مغلق، يقبع خلفه سؤال أخرسته النظرية وأسكته التدريب التربوي لمنظِّر وناظر اسمه حسون.

* * *

12 ـ حكاية سحّارة

ـ 1 ـ

ما أقسى أن تقف على باب أبكم أخرس، لا تدري ما وراءه ـ ومع ذلك فإنك تعلق عليه آمالاً عراضاً، وترجو منه فتحاً مبيناً يخلصك مما أنت فيه من ضيق وحيرة ـ.

كانت هذه حالتي أمام باب مكتب الأستاذ حسون، ناظر مدرسة الخنساء الإبتدائية للبنين. هذه المدرسة التي صارت ـ الآن ـ حالة خاصّة، لا مثيل لها في ذكريات الناس والأحداث.

مدرسة كنت أظنها أحسن مدرسة في الوجود البشري. ويكفي أنها تقوم في أحضان شجرة السدر الخالدة.

وهي شجرة سدر ضخمة تقف شامخة سامقة وسط فناء المدرسة. ولا أحد يعلم متى غُرست هذه الشجرة، ولا من غرسها. ولكنها شجرة مباركة ظلت تعطي هذا المكان معنى خاصاً وترمز للنماء والحياة والخيال، وتبعث السرور والبهجة لكل من يراها أو يجلس في ظلها. دائمة الخضرة، معطاء

الثمرة. ويروى أنها كانت في قديم الزمان تساعد الطلاب على حلّ واجباتهم، وكل طالب تستعصي عليه مسألة في الحساب أو الجبر ويرقد في ظلها بضع دقائق فإنه يصحو من رقدته وقد رأى الحل مرسوماً في خاطره وما عليه إلاَّ أن يسطر الحل فوراً وقبل مغادرته لحدود ظلال الشجرة. ولو حدث أن غادر حدود الظل دون أن يكتب الحل فإنه لن يجد الحل أبداً مهما حاول التذكر حتى ولو عصر مخه عصراً. بل إن بعضهم يقول إن الطالب الذي يتهاون في كتابة الحل الممنوح له من الشجرة يفقد قدرته على الفهم والاستيعاب ويعجز عن مواصلة الدرس في تلك المادة. ولذلك فإن الطلاب يحرصون على احترام حقوق الشجرة وعلى مراعاة الأدب في التعامل معها.

ـ 2 ـ

ولم تكن بركة الشجرة وخيراتها خاصة بطلاب المدرسة وحدهم. بل إن ذلك يشمل أهل البلدة كافة. وكنت في بداية عهدي مع المدرسة أشاهد رجالاً من البلدة يأتون أوقات الضحى ويتوضؤون في حوض الماء الواقع قبالة مبنى المدرسة من جهة الغرب. وهو حوض ماء أوقفه أصحاب المزرعة المجاورة لكي تشرب منه الدواب ويستقي منه أهل الحارات المجاورة، ويتوضأ منه الطلاب وعابرو السبيل. وكان الناس يأتون إلى داخل المدرسة بعد تطهّرهم في ذلك الحوض لكي يصلّوا صلاة الضحى تحت شجرة السدر. وكنت ترى على وجوههم أثر

الخشوع والاستغراق في العبادة والصلاة وهم في ظل هذه الشجرة المباركة.

ـ 3 ـ

لقد كان بيني وبين هذه الشجرة إلفة خاصة مذ كنت طالباً في هذه المدرسة ـ وكان اسم المدرسة حينذاك: المباركية، ثم غيروا اسمها ليكون مدرسة الخنساء تمجيداً لشاعرة العرب الأولى وماجدة النساء البارزة ـ.

وقد نشأت الإلفة منذ تلك اللحظة التي عاقبني فيها مدرّس الحساب لأنني لم أحفظ جدول الضرب فكلفني بسقاية الشجرة، وذلك بأن أنقل جرادل الماء من المزرعة المجاورة وأصبه في حوض الشجرة.

لقد كان ذلك عقاباً شرساً على صبي يافع ضعيف البنية مثلي في ذلك الحين، وكان جسمي أضعف من أن يتحمل هذا العبء الثقيل ويحمل جرادل الماء الممتلئة والتي كان العم عباس يقوم بها أيام قوته واكتماله. ولكن لم يك بد من تحمل هذا العقاب إذ لن يسمع أحد شكواي فيما لو حاولت التشكي، إضافة إلى أن تربيتنا في ذلك الزمن تحرّم علينا الاعتراض أو المناقشة أو المساءلة. وعلينا ـ دائماً ـ أن ننصاع لكلام من هو أكبر منا ـ خاصة المدرّسين وأولياء الأمور وكبار الجماعة والحمولة ـ.

لذا فقد أسلمت أمري للّه، وذهبت نحو حوض الماء وبيدي الجردل وفي قلبي الحسرة والانكسار والمرارة. وغطّست الجردل وسط الماء وكان جسمي بكامله معلقاً فوق وجه الماء، وحينما جذبت الجردل خرَّ جسمي ووقعت في الحوض حيث ابتلعني الماء إلى داخل الحوض، ولم ينقذني من غرق مؤكد سوى فتاة بدوية كانت تقف بجانب الحوض، وبادرت إلى جذبي، ولم يك ذلك بالعمل الصعب عليها إذ إن جسمي من الهوان إلى درجة وزن الريشة.

أخرجتني البدوية من الماء مبلل الثياب وقد غص حلقي بالماء والشبا، وغصت نفسي بالانكسار والفزع، وأحسست يومها بذلك الحس القاتل حينما تحس وكأن العالم كله تجمع لينظر إليك وأنت في حال من الهوان والضعة وانعدام القيمة والتقدير.

أخذتني البدوية إلى باب المدرسة وراحت تدق على الباب وتصفق بيديها لتجلب انتباه من في داخل المبنى. وكنت لحظتها أتمنى الموت ولا يشاهدني زملائي التلاميذ على تلك الحال. ولكن لا مفر لي منذ أن كانت تربيتنا الاجتماعية لا تسمح لك بأي خيار سوى الانصياع والاستسلام.

جاء المدرّس ـ إياه ـ بعد أن نبهه الطلاب إلى نداءات البدوية، وأخذني من يدي وجرني بغلظة وأوقفني تحت شجرة السدر قبالة مدخل الفصل، وذلك من أجل تجفيف ملابسي. وعاد الأستاذ إلى الفصل ليواصل ساديته المعتادة مع باقي الطلاب.

أما أنا فقد ظللت واقفاً تحت الشجرة. وهذه هي لحظتي الحقيقية مع بركة هذه السدرة، إذ بمجرد أن وقفت في ظلها عمني شعور بالراحة والهدوء وارتفعت عن خاطري الهموم وزال الانكسار وغمرني حنان أراح نفسي وثبت قدمي الراجفتين، ووجدت عيني تسرحان بين ورقات السدر، وبدأت أسمع وأرى همسات تصدر من الورقات وتخاطبني أنا خاصة وتتكلم معي تخصيصاً. وهذه أول مرّة من طفولتي اكتشف أنني إنسان يستحق أن يخاطب بمفرده وأن يخص بحديث موجه إليه وحده.

اكتشفت أنني إنسان، وهذا هو ما فعلته (السدرة) معي ولي.

13 ـ حكاية سحّارة

ـ 1 ـ

قال المعلم مسعود بن عبد القيوم:

مرّت عليَّ ساعة ثقيلة طويلة، وأنا على باب الأستاذ حسون أندب حالي وحال المدرسة وأهلها حتى كدت أن أنزل على الباب أرفسه وأكسّر حلقاته، هذا الباب المتجمد الساكن الذي لا حياة من حواليه. وكل الذي أريده من هذا الباب البليد هو أن أعرف عما إذا كان سعادة الناظر قابعاً داخل المكتب أم أنه في موقع آخر في المدرسة أو خارجها. ولم أجد في الباب ما يشعرني بشيء أو يقودني إلى شيء يفيدني لمعرفة مكان الأستاذ الناظر، الذي دأب على التخفي عنا وعدم الظهور علينا مهما كانت حاجتنا وحاجة المدرسة إليه.

ولكن بعد طول حيرة وتوجس لمحت حركة فاترة تصدر من الجانب المقابل للممر الرئيسي في جناح الإدارة. وهو ممر كان في أصله فسيحاً وبهياً ولكنه الآن أصبح ضيقاً حرجاً كحال سائر

قاعات وممرات المدرسة بعدما جرى عليها مما ذكرته لكم ـ سالفاً ـ من ضيق وانحسار أصاب المبنى من داخله، وجعل المدرسة مثل الصدر المحشور حتى ضاقت بالهواء الذي صار يحدث صفيراً وأزيزاً مخيفاً ومحزناً وهو يتسرب عبر الممرات الضيقة والمنعطفات المتلاصقة. ويا للّه على تلك الأيام التي كان فيها الفرح والسعة هما صفة المكان وسمة الحركة فيه.

لمحت حركة باهتة في الطرف المقابل من الممر فاتجهت نحوها فإذا بي اكتشف أن الأستاذ حسون يقبع داخل (المختبر الصوتي) منهمكاً في تجاربه على ما يظنه نظرية في استبدال اللغة البشرية وتحويلها من لغة منطوقة إلى لغة خرساء لا تعتمد على الكلام بل على اللمح والإيماء.

وجدت الباب موارباً فدفعته ودخلت.

ـ 2 ـ

دخلت وأنا أكاد أنفجر من الغيض إذ رأيت السيد الناظر يجلس بهدوء وسكينة واستغراق عجيب، في حين أن المدرسة تمر بكارثة توشك أن تهد الكيان كله على ما فيه ومن فيه.

وتذكرت أن الأستاذ حسون قد حرَّم علينا استخدام اللغة المنطوقة وفرض علينا لغة الإيماء والإشارة، غير أني لم أكن في وضع يمكنني من التحكم بنفسي وبتصرفاتي، ولذا فقد انفجرت متكلماً بانفعال وبعاطفة تجيش بالصدق والمصارحة والمكاشفة، وتكلمت عن الخطر الذي يداهم مدرستنا وعن حالة (الضيق)

التي أصابت المبنى مما هو علامة على أزمة نفسية حادة تعاني منها المدرسة وقد تؤدي بها إلى الانفجار والدمار.

كنت أتكلم بانجراف وانفعال، ولم ألاحظ ردود الفعل لدى الأستاذ حسون، ولكنني بعد قليل رأيته يشير إليَّ إشارات متوالية يطلب مني الصمت والهدوء. ثم وضع يده على فمي وشد على لساني بقوة إلى أن منعني فعلياً من التفوه والحديث.

ثم طلب مني الجلوس، ويده ما تزال شادة على لساني. جلست وكان العرق يتصبب من فوق جبيني وعلى صدغي، ورمقني حسون بعينين غاضبتين وأشار بيده اليسرى إلى مقص أزرق معلق على الحائط. وفهمت من هذه الإشارة أنه يستأذنني بأن يقص لساني، . فأومأت له بعدم موافقتي على مقترحه. وهنا ناولني ورقة مرسوماً عليها لسان ورقبة وبينهما سهم مكتوب عليه هذه الجملة: (ويل لهذا من هذا). ويل للرقبة من اللسان.

أحسست بصداع عنيف يلف رأسي حتى أغشى بصري وفجر آذاني. وأحسست بضيق خانق يطوي خاطري كله. وتماثل لي لساني وكأنه ثعبان سامٌ يلتف حول جسدي (وروحي) ويهدد كياني كله. وتراءى حسون وكأنه المنقذ الذي بيده انتشالي من بؤرة الآثام ورجس اللغة.

وانفجرت بالبكاء وانهالت دموعي حارة وذليلة، فرفع الأستاذ حسون يده عن لساني، وظهر لساني ذابلاً باهتاً لا حراك فيه ولا حياة. وكأن لساني قد تبرأ مني أو كأني قد تبرأت منه.

ونظر إليَّ السيد الناظر بإشفاق وتودد وأشار عليَّ بأن أغسل وجهي ورأسي، ووقف بجانبي يصب عليَّ الماء مشيراً باستمرار بأن أتجنب اللسان إذ إن مجرد ملامسة هذه العضلة تفسد عليَّ نظافتي وقد تدنس يدي دنساً لا تسهل إزالته.

ـ 3 ـ

أشار الأستاذ حسون إليَّ بإشارات فهمتها كلها فهماً تامّاً. فهو قد سلمني (المقص الأزرق) ووضع عن يميني صورة لسمكة تسبح في بحيرة صافية زرقاء تحت جسر. وأشار إلى (شجرة السدر) التي في فناء المدرسة.

إنه يقول لي إن لساني هو شجرة السدر وأني لكي أصل إلى بحيرتي التائهة لا بدّ أن استأصل هذه الشجرة التي تحول بيني وبين بحيرتي. فإذا قطعت الشجرة سينقطع اللسان معها وسأكون حينها سمكة تسبح حرة في مائها الصافي وبحيرتها النقية.

وخرج الأستاذ حسون من المختبر الصوتي وتركني وحدي هناك. تركني في صمت تام وفي عزلة مطبقة، وبيدي مقص أزرق وأمامي شجرة السدر، وخلفي سمكة تسبح في بحيرة وبين فكَّيَّ لسان متخدر متبلد.

وراح حسون ليدخل إلى غرفة الإدارة ويغلق الباب من خلفه، وهو على يقين من أنه قد قطع آخر لسان في المدرسة. وحقق نظريته الجديدة، حيث لم يعد بحاجة للعودة إلى المختبر.

14 ـ حكاية سحَّارة

ـ 1 ـ

بعد أن نشرت الحلقة الماضية تلقيت مكالمة هاتفية مفاجئة من الشاب (سمير) تلميذ المعلم مسعود ومريده الأثير، وقد قال سمير إنه يهاتفني ليبلغني بأمر أستاذه بعد حادثة لقائه مع ناظر المدرسة في المختبر الصوتي في المدرسة. ولقد تحدث معي سمير بحديث طويل عن أستاذه وعن المدرسة وشجرة السدر وعن زملائه التلاميذ. وقد لا أتمكن من رواية كل ما قاله لي سمير لأن بعضه من الأمور الخاصة جداً، كما أن هناك أحداثاً من الصعب الخوض فيها لأنها تمس بعض الأشخاص الذين لهم مكانة معروفة في المجتمع، ولكنني سأكتفي بنقل ما قاله سمير عن حالة المعلم مسعود بعد خروجه من المختبر.

ـ 2 ـ

يقول سمير إنه كان يتجول في جنبات المدرسة وهو يحمل الحسرة في نفسه على الحال التي يمر بها الجميع، وكان ملتزماً

بالتعليمات الرسمية من حيث تجنب الكلام والهرولة والاكتفاء دائماً بالحركات الهادئة كالإيماء بالحاجب أو رفع السبابة أو المسح على الجبهة، حسب مقتضيات المقام وموجبات الحال التي دربهم عليها الأستاذ حسون.

وكان من عادة سمير أن يتقابل مع المعلم مسعود خلف شجرة السدر وفي حمايتها حيث يتبادلان الحديث والشجون بعيداً عن ملاحظة الأستاذ حسون.

وفي ذلك اليوم ذهب سمير إلى الموقع ذاته ولكنه فوجىء بعدم وجود المعلم على غير ما هو معتاد عنه من حرصه الشديد على هذا اللقاء الخصوصي جداً والهام للاثنين معاً. وانتظر سمير مدة من الوقت فلم يحضر المعلم مما أقلق بال سمير وحيّره، ولم يك في يده من حيلة سوى البقاء تحت السدرة وفي حمايتها منتظراً الفرج من الله ومتصبراً على حيرته.

ـ 3 ـ

مرّت الساعات على سمير وهو مختبىء في شجرة السدر، وفي نفسه تصميم على الانتظار حتى يكتشف سرّ اختفاء المعلم، واستمر على حاله إلى أن انتهى الدوام الرسمي للمدرسة وانصرف التلاميذ إلى أهاليهم وفرغت المدرسة من ساكنيها، وهنا لاحظ سمير حركات أذهلته وسلبت صوابه فقد شاهد ناظر المدرسة الأستاذ حسون يخرج من غرفة الإدارة ومعه عصاً مطاطية متلوية كالأفعى، وأخذ يرفعها ويلوح بها يميناً وشمالاً

ويهوي بها ضرباً وجلداً في جدران المدرسة وأعمدتها وفي أغصان شجرة السدر، ثم يأتي بقطيع من الخرفان محجوزة في الفناء الخلفي ويجرها ممسكاً بقرونها ويوقفها على شجرة السدر ويقف على رؤوسها وهي تأكل الورقات الخضراء في الشجرة.

يفعل هذا ويدير وجهه متصفحاً الجدران والأعمدة ثم فجأة ينط بانفعال وطيش ويأخذ بضرب أحد الجدران بعصاه الأفعوانية ولا يترك الجدار إلاّ وقد سال البلل من حوله وكأنها دموع يسفكها الجدار من شدة الوجع والقهر، وظل السيد الناظر على هذه الحال إلى أن حان وقت الغروب.

ـ 4 ـ

عند الغروب قام الناظر بإعادة الخراف إلى مخدعها، وطوى العصا طياً رشيقاً ووضعها في جيبه الأمامي مثلما يضع أحدنا قلمه في جيبه، وظهرت العصا وكأنها مقص أزرق معلق على الجيب.

ثم تجول الناظر من حول الشجرة، ولكنه لم يكتشف وجود سمير تحت السدرة. فلقد تمكنت السدرة من إخفاء سمير والتكتم عليه كما تدس الأم الحنون وليدها الرضيع في حضنها. هذا ما قاله سمير وأكده لي مشيراً إلى ما بينه وبين السدرة من علاقة حميمة خاصة لا يفهمها إلاّ من عرف هذه الشجرة المباركة.

دار الناظر دورته ثم راح إلى غرفة المختبر وخرج وهو يجر

المعلم مسعود وراءه. والمعلم يسير مذهولاً ذابل الحاجبين مرتخي الأعضاء، لا يتكلم ولا يتبسم ـ ولقد كان الابتسام عادته التي لم تك تفارقه ـ.

أوقفه حسون على الشجرة وبدأ يغريه بأن يأكل من ورقاتها الخضراء. ومن الواضح أن مسعود جائع ومنهك. ولكنه كان يقاوم مقاومة ضعيفة ويبدو عليه العجز وقلّة الحيلة. وحسون يشد عليه حيناً ويلاطفه حيناً، ويحاول إغراءه بأكل الشجرة. ومن الغريب أن حسون الذي يحرم الكلام ويمنع الجميع من استعمال اللغة صار في هذه اللحظة يتكلم ويتحدث مستخدماً كل أنواع الخطابات اللغوية إغراء وتهديداً ومجادلة ومغازلة. كل ذلك ليقنع المعلم مسعود بالأكل من الشجرة.

حتى إنه في وسط هذه المحاولات راح يرش الماء على لسان المعلم مسعود لكي يلين ويترطب بعد جفافه وتيبسه، وراح يقول له إنني سأسمح لك بالكلام واستخدام لسانك إذا أكلت من أوراق الشجرة.

وراح مسعود يترشف قطرات الماء بلهفة تدل على أنه لم يطعم الماء منذ مدة طويلة.

ترشف المعلم مسعود ذرات الماء ولان لسانه ونطق.

ولكنه نطق ليقول لحسون: لن آكل ورقات الشجرة.

وقال بصوت منهك مجهد: هذه الشجرة هي أمي ولن أمزق أحشاء أمي ومهما أطلقت خرافك على هذه الشجرة فإنها سوف تنبت عشر ورقات خضر مقابل كل ورقة تأكلها خرافك.

هذه شجرة البركة والحياة، وأنا لن أكون ساحقاً للبركة والحياة.

ظل مسعود يردد هذه الكلمات بصوت متقطع يصدر عن لسان عانى من الكبت والأسر ولكنه لم يلن ولم يهن.

ويقول سمير إنه خاف عند ذلك على معلمه من طيش حسون وغضبه، ولكن حسون أظهر سماحة عجيبة فلم يغضب من المعلم ولم يشدد عليه بل لاطفه وربت على كتفه وجره من يده وأخذه إلى غرفة المختبر حيث أدخله هناك وأغلق عليه الباب.

ـ 5 ـ

ذهب ناظر المدرسة بعد ذلك إلى غرفة المستودع وسمير ما زال يراقب تحركاته، وغاب في الغرفة بعض الوقت، ثم خرج وقد غيّر ملابسه وارتدى لباساً عليه الأبهة والوجاهة وتظهر عليه علامات الثراء والرفاهية واتجه إلى باب المدرسة حيث شاهده سمير يصافح مجموعة من الرجال المتهندمين بأفخر الملابس، وكان الناظر يمازحهم ويقهقه معهم بضحكات مجلجلة وبصخب متهلل ويتكلم معهم بصوت عال لا تحفظ فيه، ثم امتطى الجميع سيارة فارهة من سيارات الوجاهة والثراء، وتحركت بهم السيارة بعيداً عن المدرسة.

وهنا خلت المدرسة لسمير ومعلمه ولباقي الحكاية في الفصل القادم ـ إن شاء الله ـ.

15 ـ حكاية سحَّارة

ـ 1 ـ

اكتشف سمير حقيقة ما يحدث في المدرسة، وأحس بخطورة هذا الاكتشاف، وقد ذكر لي سمير ـ في مكالمته الهاتفية معي ـ أن هذا الاكتشاف قد أصابه بالرعب واليأس معاً فقد ظهر له الأستاذ الناظر في صورة معاكسة لكل المثل والقيم التي يتوخاها فتى في سن سمير من ذوي الشأن ورموز المجتمع. فقد اتضح أن الأستاذ حسون يحمل في طيات نفسه نوايا شريرة ضد (السدرة)، هذه الشجرة الكريمة المباركة التي تظلّل المدرسة وتباركها وتحوطها بالخضرة والنماء وتختزن للمدرسة ومرتاديها نغمات الحياة والأمل متمثلاً بصوت أسراب العصافير والطيور التي تتخذ من الشجرة مأوى لها وتطلق تغاريدها في أرجاء المدرسة وكأنها بذلك تعلن للجميع عن آمال الحياة والفرح، بعد أن ساد الحزن والضيق في هذه المدرسة المنكوبة بناظرها.

لقد اتضح لسمير أن شجرة الحياة هذه مهددة بالموت، وأن

الذي يسعى ويخطط لاغتيالها هو الرجل الذي كان يفترض أنه ناظرها وحاميها.

عقدة الأستاذ حسون ومشكلته هي الشجرة، لأنها الكائن الوحيد الذي ظل يتكلم وينمو ويزدهر بالخضرة والطيور والحياة. ولما يزل لسان الشجرة هو اللسان الوحيد الناطق في هذه المدرسة.

ولذا راح حسون يقطع الماء عن الشجرة، ويطلق قطعان الخراف الجائعة لتأكل ورقاتها الخضراء. وراح يضغط على المعلم مسعود لكي يخون عهده مع هذه الشجرة المباركة، وراح يدفع به لكي يعتدي عليها ويغريه بكل الوسائل ليفعل فعلته، وإذا لم ينفع الإغراء فإنه لن يتردد في استعمال وسائل إرهابية تجبر مسعود على الغدر والخيانة. وبذا يتمكن الناظر من القضاء على مسعود والشجرة معاً.

ـ 2 ـ

اتضحت المشكلة لسمير، وبقي عليه أن يبحث عن حلول تخرج معلمه مسعود من سجنه، وقد خلا له الجو بعد خروج الناظر من المدرسة، وحلول الظلام الذي كلل المبنى بغطائه الكثيف. لم يكن سمير يخشى شيئاً الآن سوى أن يكتشف والده غيابه وتأخره عن البيت وقد يفتضح أمره لو أن والده اتصل بناظر المدرسة للسؤال عنه، أو لو فكر أحد من رجال الشرطة في البحث عنه في المدرسة.

أخافه هذا الهاجس، ولكنه قرر إسكات هواجسه هذه بالعمل الجاد لإنقاذ معلمه ـ أولاً ـ وليكن بعد ذلك ما يكون.

راح سمير إلى غرفة المختبر الصوتي حيث تم احتجاز المعلم مسعود وطرق باب الغرفة عدة طرقات ولكن لا أحد يجيب، وراح ينظر من خلال النافذة الجانبية وعلى الرغم من الظلام الحالك فإنه استطاع أن يلمح خيال المعلم وسط الغرفة، ووصل إليه صوت أنفاسه الخافتة، فطرق عليه زجاج النافذة ولكنه لم يظهر أية حركة وكأنه قد فقد قدرته على السمع والملاحظة. هذا الرجل الذي كان من أدق الناس ملاحظة ومن أشدهم إحساساً صار لا يحس ولا يلاحظ.

ازداد خوف سمير من الظلام والوحشة ومن حالة المعلم وجفاف الحياة فيه، ومن هاجس اكتشاف أمره وإحباط خطته.

وهذا دفعه إلى كسر زجاج النافذة والدخول إلى المختبر حيث راح يهز معلمه ويضرب على صدره طالباً منه التكلم أو في الأقل التحرك أو الإشارة. ولكن مسعود لا يبدي أي تجاوب مع محاولات سمير.

نطَّ سمير مسرعاً وسط الظلام نحو غرفة الإدارة حيث هناك برادة ماء مغلق عليها داخل الغرفة، وكسر النافذة ودخل إلى الغرفة حيث احتسى بين يديه قطرات من الماء راح يجري بها نحو المعلم ليرشه بما تبقى من القطرات، وكرر ذلك مرات سبعاً، وفي كل مرة يصب قطرات الماء على وجه مسعود وعلى

لسانه وعلى أذنيه وصدره. ومع كل قطرة ماء كان مسعود يستيقظ شيئاً فشيئاً حتى عادت إليه أنفاسه وفتح عينيه وتحرك لسانه، ثم صحا من غيبوبته، ونهض منزعجاً ومرتبكاً ومحتاراً. وحاول أن يسأل سمير عما جرى. ولكن سمير بادره طالباً منه الخروج فوراً من الغرفة، وذهب الاثنان معاً وتعاونا على حمل برادة الماء حيث دفقا ماءها كله في حوض الشجرة، وما إن فعلا ذلك حتى أنارت حيطان المبنى وتفتحت كل الأبواب المغلقة وتنفس المكان كله بأنفاس الحياة والفرحة.

- 3 -

خرج سمير ومعه معلمه مسعود، وفي طريقهما إلى منزل سمير، كشف سمير لمعلمه أسرار الناظر حسون وحكايته مع الشجرة والخراف وتصرفه مع مسعود وإغراءاته له ليأكل من الشجرة ويرتكب الإثم ويقع في معصية قد لا تكفي حياته وحياة نسله لمسح عواقبها.

كان سمير يروي لمعلمه الحكاية وهم يعبرون شوارع القرية مشياً على الأقدام، ووصلوا منزل سمير حيث كان أبوه يبحث عنه وكانت أمه تطل من شرفة الدار تستمع إلى كل خطوة تهب بها نسائم الظلام داعية الله أن تكون هذه خطى سمير معافى سليماً.

لقد عاد سمير إلى بيته سليماً ولكنه قد نسي شيئاً واحداً في عملية الإنقاذ الشجاعة.

لقد نسي الخراف، التي ما زالت تعيش في المدرسة، وهذه هي جيش حسون المتربص بالشجرة.

وإن كان في مقدور المعلم مسعود أن يفر بجلده وبجسده خارج أسوار المدرسة ويبتعد عن حسون وبطشه، فإن الشجرة لما تزل حبيسة داخل تلك الأسوار تحت سلطة حسون وخرافه المدربة على الجوع والنهم والجشع والطاعة العمياء. وستظل هذه الخراف متربصة بالشجرة مطيعة أمر سيدها في استئصال كل ورقة خضراء في تلك السدرة المباركة.

نسي سمير الخراف، ولم يعلم بغلطته هذه إلاً حينما سأله معلمه مسعود وهو يودعه على باب داره.

طارت الفرحة مع ذلك السؤال وبدأ هم جديد يثقل كاهل سمير ويتحدى حيل مسعود.

16 ـ حكاية سحَّارة

ـ 1 ـ

ظن سمير أنه قد حقق أمنيته الغالية وذلك بإنقاذ أستاذه مسعود من تسلط ناظر المدرسة. وسوف ينطلق المعلم مسعود من الآن فصاعداً ليحقق لنفسه الخلاص والحرية. غير أن ذلك لم يكن، فقد قرر المعلم مسعود العودة إلى المدرسة ومواجهة الناظر وفضح نواياه التآمرية أمام الجميع.

عاد المعلم مسعود صبيحة اليوم التالي ودخل إلى مكتب الناظر يحمل في نفسه كل ما في العالم من غضب وتحدٍّ وغيرة. ولكن غضبه تكسر على صدى ضحكات الأستاذ حسون، ناظر المدرسة.

راح حسون يضحك ضحكات مجلجلة ترددت أصداؤها في كافة أرجاء المدرسة، وانطلق السيد الناظر مهرولاً ما بين الفصول والقاعات والمكاتب يأمر التلاميذ والمدرسين بالخروج إلى فناء المدرسة وممارسة الضحك والضحك بكل ما تقوى عليه

حناجرهم وصدورهم. وضجت المدرسة بالضحك وانطلق التلاميذ ضاحكين ومهرولين بعد سنة كاملة من الكبت والمنع وتحريم الضحك والكلام. وظهر الأستاذ حسون وكأنه مهرج في سيرك يقود قوافل الضحك واللعب.

يحدث هذا في الفناء تحت نظر وسمع المعلم مسعود الذي ظل داخل مبنى الإدارة ينظر ويعجب عاجزاً عن فهم ما يحدث وعاجزاً عن التصرف.

مرّت ساعة أو ساعتان على هذا المهرجان الضاحك وسط المدرسة. والسيد الناظر يجري بين الصفوف يغري الجميع ويحثهم على الضحك واللعب، وكلما ظهر فتور على بعض الوجوه هب الناظر إلى حشد سرب من المعلمين يضعهم على أغصان شجرة السدر ويلوِّح لهم بالعصا ليجعلهم يتصرفون كالقرود وذلك لاستثارة الضحك في صدور التلاميذ، وقد تجاوب المعلمون مع هذه اللعبة إلى أن صفَّق الناظر بكفيه وأمر الجميع بالتوقف والإنصات لكي يستمعوا إلى إعلان مهم سوف يعلنه عليهم.

ـ 2 ـ

أمسك حسون بالعصا ووضع على رأسه عمامة سميكة واعتلى فوق أكبر أغصان الشجرة ثم نادى بأعلى صوته قائلاً: أيها الأحبة أبنائي الطلاب وإخواني المعلمين، لقد أمرتكم بالفرح وشاركتكم فيه لأن معلمكم المحبوب الأستاذ مسعود بن

عبد الهادي (لقد أخطأ الناظر في اسم المعلم فهو ابن عبد القيوم وليس ابن عبد الهادي...؟!) قد وافق على رجاءاتي وتوسلاتي المستمرة معه في أن يتولى منصب مساعد الناظر. لقد وافق أخيراً ـ بارك الله فيه ـ ولسوف ينوب عني في إدارة شؤونكم وشؤون مدرستكم والعناية بشجرتكم، شجرة السدر، شجرة البركة ورمز الحياة. هذا يا أخوتي هو سبب فرحتنا هذه. ولسوف أزيدكم احتفالاً وفرحاً ـ وأرجوكم مساعدتي في ذلك كما ساعدتموني على الضحك ـ وذلك بأن تتوجهوا معي الآن إلى حظيرة الأغنام وتنحروا الخراف التي فيها ليكتمل حفلنا بمائدة تكون غداء للجميع بعد نهاية الدروس.

ـ 3 ـ

صعق الأستاذ مسعود من هذا المنظر والمسمع وهاله الأمر ولم يجد بداً من الإنزواء داخل غرفة الإدارة سائلاً الله البصيرة والفرج.

ومرّت الساعات طويلة وثقيلة على ضمير مسعود. كان يجلس وحيداً في هذه الغرفة منسحباً إلى داخل نفسه غارقاً في توجساته، وقد تسمرت عيناه في الحائط وفجأة وجد نفسه يبتسم عن غير قصد وعن غير رغبة وذلك حينما رأى لوحة على الجدار منقوشاً عليها كلمات باللغة الإنجليزية هذا نصها:

Do not take Life Seriously. You will never get out of it alife.

تبسم رغم غضبه ورغم بؤس حاله وراح يترجم العبارة ويرددها في نفسه: (لا تأخذ الحياة بجدية، فأنت لن تخرج منها حيا) ويزعجه وقع الكلمات العربية ولا يحس بتطابق النص أو بانضباطه فيعاود الترجمة قائلاً: (لا تشتبك مع الحياة بجدية فأنت لن تفارقها حيا).

ويعدو مرة ثالثة ليقول: (لا تكن جاداً مع حياة لن تتركك حيا).

وما لبث أن صرخ بأعلى صوته ساخطاً على هذا الناظر الجبار لأنه أدرك كم وراء هذه العبارة من دلالات مشفرة تعمَّد الناظر إيقاع مسعود في تشابكاتها ليجعله يدخل في متاهات التوجس والترهيب والتهديد والتشكيك.

ضرب على ركبته وقرر أن يصبر وأن يصابر.

17 ـ حكاية سخّارة

«موت المجاز»

ـ 1 ـ

لم تمر سوى أيام قليلة مذ أعلن حسون تعيين مسعود نائباً له، حتى جاء يوم من أيام الناظر المجيدة حيث دخل فجأة على مكتب المعلم مسعود وبادره بالكلام قائلاً له إنه اكتشف أخيراً علّة المدرسة وبلواها. وهي أن (الحكمة) لم تأخذ حقها من المعاني الفعلية ودلل على ذلك بالحكمة التي تقول (من طلب العلا سهر الليالي). وراح حسون يشرح معنى هذه الحكمة ويشير إلى ارتباط العلا بالسهر. مما يعني أن عدم السهر يفضي إلى السقوط. ونحن في هذه المدرسة نعيش السقوط بعينه، ولا حلّ لنا إلاّ أن نحقق شرط الحكمة بالسهر. ولهذا فإن السيد الناظر راح يشرح لمسعود خطته الجديدة في فرض السهر على التلاميذ من أجل أن تتفتح لهم أبواب العلا.

ـ 2 ـ

بدأ المشروع الجديد بأن قرر الأستاذ حسون منع الطلاب

من النوم في الليل وراح يخطط لذلك عملياً فوضع الأساتذة على مداخل القاعات وعلى الممرات وأمرهم بالوقوف ومراقبة أي طالب ينعس أو تفتر قوته، ثم زاد على ذلك بأن وضع أجراساً في رقاب الطلاب بحيث تدق هذه الأجراس في كل مرة ترتخي فيها الرقبة. وجعل في أركان الفصل ساعات تدق كل خمس دقائق لكي تساعد على الجلبة والضجيج الذي يطرد النوم من عيون الطلاب.

وراح الأستاذ حسون يدور على الطلاب والمعلمين يشرح لهم نظريته هذه، ويقول لهم إن اللغة العربية ابتليت بالمجاز. وأن المجاز مؤامرة على المعنى وعلى المجتمع لأنه يحرف الدلالات ويفصل بين المفردة ومعناها. ولهذا سقطت الحضارة وتأخرت الأمة لأن الناس صاروا يأخذون الحكمة مأخذاً مجازياً ويفسرون سهر الليالي تفسيراً رمزياً يحول المعنى ويبدله.

وأعلن حسون عن عزمه على إعادة المعاني للألفاظ. ولهذا قرر إيقاظ المدرسة في الليل ومنع النوم من الدخول إلى عيون التلاميذ في سبيل تحقيق شرط العلا.

هذا ما جرى للأولاد، أما الأساتذة فقد كان نصيبهم من (الحكمة) أقسى، ذلك لأن السيد الناظر حينما تمعن منطق الحكمة التي تقول إن (العلم نور) وقاس حالة المعلمين الذين هم رموز العلم والمعرفة هاله أن لا يرى النور يشع منهم. ولذا فإما أنهم غير متعلمين وإما أنهم لم يستشعروا حقوق العلم

ونورانيته. ولذا قرر الأستاذ حسون أن يجعل من معلميه مادة لتجريب منطق الحكمة، وراح يخطط لتنفيذ فكرته وبدأ أولاً بإلغاء الأنوار الليلية في المدرسة وحينما جنَّ الظلام واحتلك الليل أخذ الأساتذة واحداً واحداً وراح يعلقهم في مواقع المصابيح ويشبك أسلاك الكهرباء في آذانهم بعد أن علقهم من رقابهم وانتظر النور لكي يشع عبر مناخرهم وعيونهم وكلما أضاءت عين أو منخر صفق السيد حسون وصرخ معلناً فرحه بنجاح خطته وتحقق معاني الكلمات، وراح يطلق صوته بالفرح قائلاً اليوم تستعيد اللغة معانيها وتسترد الحكمة منطقها.

وإنك لتراه الليل كله يجري بين الممرات والقاعات ينظر في التلاميذ السهارى ويتمعن بالمعلمين المعلقين في السقوف وعلى الجدران، وترى وجهه يتدفق بالبهجة من جهة والتشفي من عدوه اللدود السيد المجاز الذي ثبت للأستاذ حسون أنه سرّ التأخر والضياع ولم يك من الناظر إلاً أن كتب لوحة كبيرة علقها على مدخل المدرسة يعلن فيها (موت المجاز). ويبشر بها بقرب اللحظة التي ترتفع فيها رايات العلا على جباه التلاميذ، وتكتمل نورانية المعلمين الذين صاروا مصابيح مشعة في ليالي الناظر حسون.

* * *

18 ـ حكاية سحَّارة

«مرض الاختلاف»

ـ 1 ـ

لم يحدث من قبل قط أن يتلقّى العم ممدوح أي استدعاء للحضور للمدرسة بشأن ابنه سمير على وجه الخصوص. ولهذا فقد ساور القلق العم ممدوح مذ تلقى خطاباً عاجلاً من الأستاذ حسون ناظر مدرسة الخنساء الإبتدائية للبنين فيه دعوة مبهمة للحضور إلى مكتب الناظر للتشاور معه في شؤون التلميذ سمير.

ذهب العم ممدوح وهو الرجل البسيط الهادىء الذي لا يعرف من الحياة غير السخاء والمحبة والتراحم، ذهب إلى مكتب الناظر وجلس منتظراً ومتوجساً إلى أن حضر الأستاذ حسون متأبطاً عصاه ومقطباً جبينه ناظراً ذات اليمين وذات الشمال وكأنه أراد أن يغرس الخوف في نفس العم ممدوح، ولم يطرح الناظر السلام كما هو متوقع ولكنه شق طريقه إلى المكتب واستدار من حول الماصة متظاهراً بالانشغال والتحفز. ولكن العم ممدوح قام من على كرسيه واتجه إلى الناظر مسلماً

ومصافحاً، وقدم نفسه للناظر وفتح خطاب الاستدعاء بين يديه.. وعند ذلك أدار الناظر وجهه بكل حفاوة وترحاب ورفع صوته بالتحية مع كلمات اعتذار عن عدم معرفته بزائره الجليل. وظهر من الناظر مظهر المودة والتقدير وحسن الضيافة والمعاملة وطلب من العم ممدوح أن يجلس بجانبه لأنه يريده في أمر جلل.

قال الناظر للعم ممدوح إن ابنه سمير بحاجة إلى العناية والتربية وأن المدرسة والبيت لا بدّ أن يتشاركا في هذه المهمة الحساسة.

أما مشكلة سمير فهي تتلخّص بأنه ولد شاذ. شاذ عن أقرانه وزملائه ومختلف عنهم. وهذا في رأي الأستاذ الناظر علامة على مرض خطير اسمه (داء الاختلاف). وهذا الداء إذا أصاب إنساناً أخرجه عن قطيع أجناسه وأفراده في عالم غير متجانس مع بيئته ومجتمعه وناسه.

وراح الاستاذ حسون يشرح للعم ممدوح أعراض مرض ابنه سمير. فقال إن سميراً لا يجاري زملاءه فيما يفعلون ولا فيما يقولون. وكل تلاميذ المدرسة يسهرون ليلهم وينامون في النهار طلباً للعلا الذي يحتاج طلبه إلى سهر الليالي. كما أنهم قد أوكلوا أمرهم للسيد الناظر يفكر ويشقى بالنيابة عنهم وليس لهم إلاّ أن يعايشوا الحياة حسبما يصفها لهم السيد الناظر. بينما يشذ سمير عن هؤلاء ويمارس التفكير بنفسه وبمفرده. وهذا خطر عظيم يهدد عقل فتى يافع مثل سمير. وذكر الناظر قصصاً عن

رجال يعرفهم قضى عليهم مرض التفكير والاختلاف منهم صديقه الأستاذ (خليل أحمد) الذي ابتلي بمرض التفكير وداهمته الحالة مرة وهو في المسجد فخبط رأسه في سارية وسقط ميتاً. والخوف الآن على سمير من أن يموت بخبطة على رأسه بسبب التفكير. وشرح الناظر للعم ممدوح بكلمات مبسطة كيف أن التفكير إذا مارسه الإنسان بمفرده أدى به إلى مهالك (الاختلاف) والتفرد والعزلة ثم إلى موت محقق بسارية أو تحت عجلات سيارة ـ كما حدث لرجل فرنسي يعرفه الناظر اسمه رولاند ابن بارثيز.

ـ 2 ـ

خرج العم ممدوح من المدرسة خائفاً ومحتاراً في شأن ولده سمير. أما السيد الناظر فإنه لم يدع مجالاً للتفريط أو التهاون فقد بادر إلى مهاتفة والدة سمير وأخبرها بظهور أعراض مرض الاختلاف والتفكير على ولدها. ولقد ذهلت الأم واستبد بها الخوف على ابنها سمير ولذا بادرت إلى استدعاء (أم علي) جارتهم ذات الخبرة والمعرفة بأدواء النفوس وطلبت منها المساعدة في علاج سمير من مرض (التفكير) ولقداقترحت أم علي أن يتعالج سمير باستطعام (الفول) ذلك لأن الأوائل يقولون من أكل الفول أربعين يوماً فقد استثور. وهذا هو السبيل إلى تبليد رأس سمير. ولقد تبرعت أم علي بطحن الفول وتنعيمه من أجل وضعه مع الشاي لكي يتشربه سمير فيما لو عافته نفسه من

الأكل اليومي. ولم تخرج أم علي ألاّ بعد أن درَّست والدة سمير كل أنواع الحِيَل التي تضمن مواظبة الولد على تناول الفول لمدة أربعين يوماً بلا انقطاع.

ـ 3 ـ

ظل سمير يطعم الفول ويتشربه دون أن تظهر عليه مؤشرات الشفاء فلم يتبلد ولم يزل يفكر ويختلف عن أقرانه ولذا فقد لجأت أم سمير إلى طبيبة أخرى غير أم علي لطلب الدواء وجاءتها نصائح الجيران بأن تغذي ابنها بلحم الثيران لكي يتطبع بطبع هذه الحيوانات ويتحول إلى ثور فيسلم من دائه المتربص به.

ومن هنا اكتملت وجبة الطعام اليومية لسمير فول ولحم ثور أملاً في أن يكون ثوراً مثل سائر أقرانه ويتخلص من داء الاختلاف ومرض التفكير.

19 ـ حكاية سحّارة

ـ 1 ـ

ما إن نشرت الحلقة الثامنة عشرة حول مرض (الاختلاف) حتى صرت أتلقى مكالمات هاتفية من شخص يشير إلى نفسه على أنه هو مسعود بن عبد القيوم، كان يذكر ذلك ويصر على ذكره في كل مرة استعمل فيها هاتفي المنزلي. ولكن مكالماته كلها تحدث وقت غيابي عن المنزل. وكنت أجد المكالمات مسجلة على جهاز الاستقبال. وظلت الحالة تتكرر بضعة أيام، دون أن يصل إليَّ أو أن أصل إليه حتى جاء يوم السبت الماضي الموافق 18/6/1416 هـ، حيث وجدت رسالة مختومة باسم يشابه اسمي، وأقول يشابه اسمي لأن اللقب الوارد فيها هو القزامي. وقد توقع سكرتير القسم أن المقصود هو أنا وأن القزامي هي تحريف للغذامي، ولذا استلمها من مراسل البريد وأسلمها لي حينما حضرت إلى مكتبي. ولسوف أنشر الرسالة لما لها من صلة بحكاية السحّارة وربما تكشف لنا شيئاً عن بطل

النص وقصته مع نفسه ومع بيئته. وهذا نص الرسالة:

بسم اللّه الرَّحمٰن الرَّحيم

من حمدون الأسدي

إلى الكاتب عبد الله، صاحب مقالات السحّارة

السَّلام عليكم ورحمة الله وبركاته...

أما بعد.. فإن الأمر إليك كما ترى وتسمع وهو أنني كنت أسمع الناس من رفاقي يتحدثون ـ أحياناً ـ عن مقالات تظهر في جريدة الرياض تحكي حكاية مدرَسَة ومدرس، ويزعم صاحبها أنه قد وجدها ضمن أوراق ووثائق في سحّارة وقعت في يدّ كاتب المقالات، وكنت أسمعهم يرددون بعض الطرائف والعجائب في حكايات هذه السحّارة. ولم يك الأمر يعنيني أو يستثيرني سوى أني كنت أجاري رفاقي بالتندّر على ما أسمعه من تعليقاتهم على السحّارة. ولكنّ المصادفة قادتني يوم الخميس السابع من نوفمبر 1995 إلى قراءة المنشور في جريدة الرياض عن مرض (الاختلاف) وعن مشكلة سمير مع ناظر المدرسة. ولقد أذهلني ما رأيت حتى أنني رحت أطوف على بيوت رفاقي أطلب منهم شيئاً من الأعداد الماضية وقد تمكنت من العثور على الحكايات التي تحمل الأرقام 4 و7 و12 إضافة إلى المقالة رقم 18 وهنا تأكد ظني، وهو أن هذه السحّارة تعود لي. وهي حق خاص بي ولي. ولا يحق لك ـ ولا أسمح لك ـ بنشرها أو التصرف فيها. وسأروي لك أمري مع هذه السحّارة.

لقد كنت مدرساً في المدارس الابتدائية وامضيت في التعليم أربعين سنة ختمتها بأن صرت موجهاً تربوياً في إدارة التعليم. وكان عملي هذا يقتضي التجوال والتطواف على المدارس لمراقبة الأداء التعليمي للمدرسين. وكنت إضافة إلى هذا أهتم برصد ملاحظاتي على ما أشاهده من طرائف وغرائب تقع هنا أو هناك في المدارس والفصول والمكاتب، مثلما كنت أحتفظ بأية قصاصة أو مكتوب يحكي عن واقعة أو عن أشخاص. وتجمع عندي من هذه الأوراق الشيء الكثير.

وفي يوم من الأيام تعرفت على شيخ طاعن في السن يجلس بجانب سور أحد المدارس ويتسلى بعمل السُّبح وبيعها. وقد تعلق مرآه في ذهني فصرت أتعمد إيجاد الأسباب الموجبة لمجيئي إلى تلك المدرسة بالذات لكي أرى ذلك الشيخ وأتحدث إليه فنشأت بيننا صحبة وإلفة دامت سنين إلى أن توفاه الله عام الرحمة ـ وهي السنة التي مات فيها خلق كثير بسبب وباء جاء إلى بلادنا فأكل الناس وأهلكهم ولم يسلم منهم سوى القليل، وسمى الناس هذا العام بعام الرحمة استنجاداً برحمة الله وطلباً للطفه بالعباد ـ.

ولما توفي جاءني مرسول يحمل حقيبة كبيرة مصنوعة من الجلد ولها هيئة عجيبة وسلمني إياها وهو يقول إنها وصية المرحوم. لقد طلب أن تكون هذه الحقيبة من نصيبي تقديراً لما بيننا من مودة.

أخذت الحقيبة إلى منزلي وجمعت كل ما لدي من أوراق ووضعتها فيها. فهي كما ترى حقيبة تضم قصاصاتي ومجموعاتي الخاصة مما هو حكايات ومذكرات عن المدارس والمدرسين.

وظلت الحقيبة عندي بوصفها ذاكرتي ومستودع حياتي الخاصة، مثلما أنها تذكار عن شيخ عزيز أحببته وأخلصت له.

وحدث ذات يوم من عام 1383 هـ أن اختفت الحقيبة من مكانها في منزلي. حدث ذلك مفاجأة ومن دون أي أثر أو خبر ولقد بذلت جهوداً خاصة وعامة للبحث عنها أو التعرف على ما حدث لها ولكن لم أصل إلى أية نتيجة. ولم أجد أي دليل يدلني على طريقة اختفائها أو أسبابه. ولقد حاول كل المحيطين بي تيئيسي منها ومن التساؤل عنها، ولكني لم أيأس قط. وكان في نفسي يقين على أنني سأجدها يوماً ما. ولقد بكيت عليها حتى جف دمعي وتجرحت مقلتاي. وإن معاناتي من جفاف الدمع مهما اشتدت واحتلكت فهي أخف من هلعي على فقدان الحقيبة.

والآن وقد علمت أن الحقيبة عندك فإنني أطالبك بإعادتها إليَّ لأني صاحبها وهي صاحبتي ولا أبيح لك نشر أي ورقة من ورقاتها. فهي أمور خاصة تخص أناساً بأعيانهم وليس لأحد الحق في فضح حكاياتهم وكشف أسرارهم. وإن شئت دليلاً على ملكيتي لهذه الحقيبة فلسوف أعطيك الدليل ولسوف أبلغك بما فيها من حكايات لم تنشرها بعد، ولست إخالك إلاَّ قابلاً

لهذه الحجة المسكتة.

ولعلك تودع قراءك في هذه الحلقة وتبلغهم أن صاحب السحَّارة قد حضر وأخذها وأن الحكاية انتهت عند هذا الحد.

هذا أستر لك ولي وللناس أبطال الحكايات. والسَّلام.

أخوك

حمدون الأسدي

20 ـ حكاية سحَّارة

جاءتني رسالة من سمير بن حمدون الطسمي تتضمن رداً على رسالة الأستاذ حمدون الأسدي، وسأكتفي بها عن الردّ على الأخ الأسدي وهذا نصها:

من سمير بن حمدون الطسمي

إلى أبي محمد عبد الله، كاتب مقالات السحَّارة

السَّلام عليكم ورحمة الله وبركاته. . .

قرأت رسالة أستاذي حمدون الأسدي إليك، ولقد قال حقاً حينما أشار إلى أنه هو صاحب السحَّارة وإلى أنه المسمى بمسعود بن عبد القيوم، وأنا تلميذه ومريده وخليله، واسمه يشبه اسم والدي ولكنه لا يمت لنا بصلة قربى.

ولقد سعدت بالتعلم على يديه وبمصاحبته ومجالسته عمراً مديداً، وأدين له بفضل جليل، ولم أكن أود كشف حكاية أستاذي أو الإعلان عن قصته مع السحَّارة على رؤوس الأشهاد لولا أن تصرفه بمطالبتك برد السحَّارة إليه أوصلني إلى قرار

الكشف والإفصاح عن الحكاية. وهي كالتالي:

كان الأستاذ حمدون مدرساً في مدرسة عبقر الابتدائية، وله شغف خاص بأبي الطيب المتنبي وشعره، وتتجلى عبقريته في فهم الشعر وتحليله حينما يتناول نصاً للمتنبي ويشرع في كشف دلالات النص ومغازيه. ولقد تعودنا أن نطلب منه ونطالبه بإلحاح لكي يعطينا دروساً في تحليل شعر المتنبي وكان مفتوناً بقصيدة أبي الطيب في وصف الأسد، وإذا شرع في تحليلها أخذ يروح في قاعة الفصل ويجيء هادراً ومزمجراً ومعه عصا يقرع بها على الأرض ثم ينط نطات حتى يلامس رأسه سقف الفصل وهو يرعد ويزبد مع أبيات القصيدة فإذا قرأ قول المتنبي عن الأسد:

ما زال يجمع نفسه في زوره
حتى حسبت العرض منه الطولا
ويدق بالصدر الحجار كأنه
يبغي إلى ما في الحضيض سبيلا

راح الأستاذ حمدون يمثل الصورة بتشكيلات جسدية يعملها في هيئته فينتفخ ويطوي جسده حتى يتساوى طوله مع عرضه وينبطح على الأرض ويبدأ يدك على البساط ويضرب بجسده على البلاط، ونحن متجمهرون حوله نعجب لتجسيد المعاني وتحول القصيدة إلى منظر مسرحي مثير.

وكان هذا ديدنه معنا.

إلى أن جاء يوم راح فيه الأستاذ يشرح لنا قصيدة المتنبي

عن الحمى، وبينما هو منهمك في التحليل بدأت تلوح على وجهه علامات الحمى والعرق يتصبب من على جبينه ويضعف صوته وترتفع حرارته، ثم يتجافى على جنبه في حال من الإعياء والوهن.

وفيما هو على هذه الحال تفاجأنا به يلتفت إلينا ويقول هل تعرفون من أنا. . .؟ فنقول له أنت أستاذنا حمدون الأسدي. فيرد علينا منكراً هذا الاسم ويطلب منا أن نخاطبه باسم (مسعود) ثم يبدأ يقص علينا قصصاً وحكايات عن مدرسة يسميها (مدرسة الخنساء الابتدائية) ويقول إنه من سلالة الخنساء الشاعرة والصحابية الجليلة ويروي حكايات (البحيرة)، تلك التي تقع في شارع التخصصي مع تقاطع العروبة، ويحكي عن أفاعيل ناظر المدرسة الأستاذ حسون، وعن تلميذه الأثير سمير، ـ وهو يقصدني هنا ـ.

حدث هذا أول مرة وقد تفاجأنا بما حدث لأننا قد تعودنا على شروحات (وصف الأسد) وعلى تمثيلاته لدلالة الأسد المعفر. ولكننا لم نعهد صورة الحمى وتمثلاتها الجسدية والروائية.

ولقد أعجبتنا حكايات مدرسة الخنساء وأبطالها مسعود وحسون وسمير فصار من ديدننا أن نطالب الأستاذ حمدون بقراءة وتحليل قصيدة (الحمى)، وذلك لكي نسمع حكاياته حينما يتحول إلى شخصية مسعود.

وكان زملائي يكتفون بالسماع والمتعة، أما أنا فكنت أسجل الحكايات، حكاية حكاية واحتفظ بها في ملف خاص أخفيه عندي في المنزل بين أوراقي الخاصة. ولما انهيت دراستي وجاءتني فرصة للدراسة في بريطانيا خشيت على الأوراق من الضياع فوضعتها في سحَّارة استعرتها من أمي وسلمتها إلى الأستاذ حمدون طالباً منه الاحتفاظ بها إلى حين عودتي من البعثة.

ولقد علمت أن السحَّارة هربت ذات ليل بهيم وراحت فارة من دار الأستاذ وهامت على وجهها أياماً وليالي دون أن يعلم أحد عن مصيرها. ولقد ظننا أنها قد فرت إلى السند لأن السحَّارة مصنوعة من جلود الغزلان السندية وغطاؤها مصنوع من جلد نوع من الثعابين لا يوجد إلاَّ في وادي (النهام) وهو واد في السند. ولقد قال لنا حكماء القرية إن هذه الأنواع من الجلود تظل تحن إلى موطنها وإذا وجدت وسيلة للفرار فإنها تفر ولا تترك أثراً.

هذا ما ظنناه..

إلى أن رأيناك تنشر مقالاتك في جريدة الرياض فعلمنا أن السحَّارة طارت إليك، وعلمنا أن هذا هو خيار السحَّارة، إنها تريد قلماً يكشف عن مكبوتها ويعلن المستور.

وهذا هو رأيي الذي فاتحت به أستاذي حمدون، ولقد وافقني عليه واتفق معي على قبول رغبة السحَّارة. غير أنني

فوجئت الأسبوع الماضي بمشاهدة خطابه إليك يطالبك برد السحّارة إليه، ناقضاً بذلك اتفاقي معه.

وهذا - كما ترى - هو ما دفعني إلى كشف حكاية الحكايات وإعلان سر أستاذي وقصته. وأزيد وأقول إن السحّارة الآن من حقك أنت بوصفك ناشرها وكاشف حكاياتها والصيد لممسكه وليس لمنفره.

أقول قولي هذا واستغفر الله العظيم لي ولك. والسّلام.

أخوك

سمير بن حمدون الطسمي

21 ـ حكاية سحَّارة

ـ 1 ـ

لم أكن أتوقع تدخلاً يأتي من الأستاذ (مسعود) أو من تلميذه (سمير)، كما لم أتوقع حدوث معركة كلامية بين التلميذ وأستاذه. ولكن هذا ما حدث، وزاد ذلك حينما تلقيت مكالمة هاتفية من الأستاذ حمدون الأسدي (أو مسعود بن عبد القيوم) ذكر لي فيها حكاية سمير الطسمي. وقال لي إنه ليس طسمياً ولكنه جديسي.

وتبدأ الحكاية منذ أكثر من ألفي سنة.

وسمير هذا كان الابن البكر للزرقاء ـ زرقاء اليمامة ما غيرها ـ. من قبيلة جديس.

لما جاء جيش تبع الحميري غازياً لديار جديس وعلمت الزرقاء بمقدم ذلك الجيش، أنذرت قومها بأن قالت لهم إنها ترى شجراً يمشي، ولكنهم لم يصدقوها وسخروا من قولها.

ولقد علمت الزرقاء أن المذبحة واقعة لا محالة، وعلمت

بقرب موت كل أهلها وهي معهم. ولذا حاولت أن تصطنع حيلة تحمي ابنها من خطر الموت، لعله يكون الناجي الوحيد من المذبحة.

ولذا فقد وضعته تحت شجرة من أشجار (العُشْر) ولفته بورقة خضراء من أوراق هذه الشجرة. وراحت تواجه مصيرها براحة ورضاً بعد أن اطمأنت على مصير ولدها.

وبعد مدة جاء قوم من التجار آملين الحصول على ما تخلف من ثروات جديس بعد فنائهم، ووجد التجار بضائع كثيرة وكنوزاً وأرزاقاً، واكتشفوا شجر (العُشر) وتنبهوا إلى أنه يصلح للكتابة فأوراقه كبيرة وملساء وطويلة العمر فنقلوا شيئاً من هذه الأوراق وأخذوه إلى أسواق العرب في عكاظ وذي المجاز وصاروا يتاجرون به. وامتدت تجارتهم بأوراق العشر إلى مصر وشمال أفريقيا.

وهناك على ضفاف الأطلسي في الموقع الذي أصبح (الرباط) فيما بعد، باعوا بعض الأوراق إلى بحار ينوي الإبحار باتجاه الغرب باحثاً عن دنيا لم تكتشف.

وكان ابن الزرقاء في داخل واحدة من تلك الأوراق ـ دون أن يكتشف أحد ذلك السر ـ.

وأبحر الملاح وكان يستخدم أوراق العُشر ليسجل عليها مذكراته، وكانت يده دوماً تمتد إلى تلك الورقة المطوية التي يختبىء فيها الغلام ولكن الملاح يعيد الورقة إلى مكانها كلما

عجز عن فك تلافيفها، ويأخذ غيرها.

ولما وصل إلى جزيرة من جزر الغرب راح يتخلص من بقايا مؤونته. ورمى أشياء كثيرة من بينها الورقة التي فيها ابن الزرقاء.

وظلت الورقة ـ وفي وسطها الغلام ـ هناك في الجزيرة البعيدة في أقصى الغرب، في ما هو ديار الأمريكان ـ كما صارت بعد قرون ـ.

وظلت الورقة تشرب من مياه السماء وتغذي نفسها وجنينها البشري القابع داخلها.

ثم جاء رجال بيض غلاظ الطباع فيهم شراسة ونهم وحطوا في تلك الجزيرة، وكانوا يفتحون كل مغلق ويحركون كل ساكن ويكسرون كل مستوٍ. فكان أن فكوا تلافيف تلك الورقة. فخرج منها فتى أسمر عربي الوجه واليد واللسان، فسأله الرجال البيض من أنت...؟

وهنا ظن أنهم من رجال تبع الحميري، فقال أنا سمير الطسمي ـ وأخفى نسبه الجديسي خشية الموت على يديهم ـ.

ولم يفهم البيض ما قاله الفتى ولكنهم أسروه بضاعة وعادوا به معهم إلى الدنيا القديمة وباعوه في سوق مصر واشتراه رجل فرنسي أخذه للعمل في حفر قناة السويس.

واشترك سمير في العمل مع عمال عرب جاؤوا من كافة البقاع من صعيد مصر وأرياضها ومن بلدان عربية أخرى.

وكان من ضمنهم رجل من أهل عنيزة من أسرة الريس جاء لطلب الرزق في مصر ولما وجد الناس تتجه للعمل في حفر القناة ذهب معهم وشارك في العمل.

وفي أحد أيام العمل هذه تواجه مع سمير ولاحظ أنه فتى غض لا يقوى ولا يعرف أعمال الحفر فأشفق عليه وعرض عليه أن يترك أعمال الحفر ويذهب للدراسة فهذا أولى به، وكان ذاك.

ولذا تعلم سمير القراءة والكتابة في أحد كتاتيب السويس.

ولما انتهت أعمال الحفر في القناة قرر (الريس) العودة إلى ديرته (عنيزة) وعرض على سمير أن يصحبه عائداً إلى جزيرة العرب. وهكذا فر سمير من آسره ومالكه الفرنسي وجاء إلى (عنيزة).

وهناك تقابل مع معلمه حمدون الأسدي.

هذا ما ذكره لي الأستاذ مسعود في مكالمته قبل أن ينقطع الاتصال. إذ يبدو أن مسعوداً كان يهاتفني من (هاتف عمله) ونفدت فلوسه قبل أن يكمل الحكاية.

أرجو أن يعاود الأستاذ الاتصال معي ليكمل لي القصة.

22 ـ حكاية سحَّارة

ـ 1 ـ

غضب سمير مما قاله عنه معلمه حمدون الأسدي فيما ورد بمكالمته الهاتفية. ولقد قرر سمير أن يحسم الموقف بلقاء يجمع الأستاذ والتلميذ وكاتب مقالات السحَّارة.

وهذا ما حدث...

فلقد عزمني سمير على جلسة خاصة في مقهى على طرف شارع التخصصي، ووضع لي علامات اقرؤها لاهتدي بها إلى المكان وإلى معرفة الرجلين حمدون وسمير من بين حشود الناس المنتشرين في ذلك المقهى النائي بعيداً عن أنوار المدينة ونواهيها.

تعرفت على أصحابي بسهولة وميزتهم عن سائر البشر. وكان حمدون شيخاً ظهرت عليه علامات السنين والتعب، أما سمير فشاب غض المنظر صارخ الحيوية دقيق مثل عصا الخيزران وسامق النظرات عيناه عينا صقر في محاجرها يختبىء

تاريخ من البصيرة وبعد النظر. ولن يخطئك الظن بأن هذا الفتى ابن تلك المرأة الماجدة (زرقاء اليمامة).

جلست بين الشيخ والفتى وانتابتني رعشة من الوجل والاحترام. أصابني منظر الفتى بالوجل والتحفز وأصابني منظر الشيخ بنشوة التقدير والاستسلام لحكمة السنين ووقار التاريخ. لكن منظر الفتى ونظراته نبش في روحي أوراقاً مطوية منسية عن قبيلة (جديس) وعن سيدتهم الزرقاء وعن حروب الإبادة والقتل بين عربان الجزيرة وقبائلها. وأحسست أن التاريخ فتى غض الإهاب أسمر العينين ساطع الجبين، وأحسست أنه بجانبي يحتسي الشاي ويدخن الشيشة ويأمر النادل البنجالي بكلمات نصف معربة.

وهنا سكتُّ...

سكت سكتتين.. إحداهما للعم مسعود الذي طار مني اسمه الحقيقي... والأخرى لابن الزرقاء.

وكنت قد أعددت نفسي لأسأله عن السيدة والدته، وعن رحلته حول العالم في بطن ورقة (عُشْر) لم يجف لها عود حتى نضج الجنين وبلغ الحلم وصار فتى يحمي نفسه.

لم أسأله...

ووجدته يبادرني بورقة في يده يقول إنها جاءته من صديق له اسمه (مطلق الشمري) وقرأ منها أبياتاً هي:

لا تفر

بعد أن أضرمت فينا جذوة الشعر

وأصداء الغيوم

ورسمت السنبل الأصفر في كف الطريق

وكتبت الحب في متن الجريدة

أبداً، لسنا نخليك

هكذا تمشي بدون الحائرين

دون أن تكتب للشوق رسالة

دون أن تروي لأفراحي وأتراحي حكاية

فبكم نلبس آيات السكون

وبكم نتلو أصوات السعادة

وأحلام المثال

لا تسافر

فالليالي حالمات بالقصيدة

ونفوس الشعر فيكم أصبحت شمساً سعيدة

لا تحاول

لا تفكر أننا نقبل عذرك

ليس للقصة ـ في الموج ـ نهاية

فالحياة ـ يا سمير الحالمين ـ

أبدٌ مفتوح

وعنوان صغير.

* * *

أكمل سمير قراءته وقال لي إن صديقه الشمري من حائل (جبة) وأنه صوت من أصوات القُراء الذين يطالبون باستمرار السحَّارة.

قال هذا والتفت إلى معلمه بعين واحدة وسمَّر باتجاهي عينه الأخرى، وفي الوقت ذاته مدّ يده نحوي صاباً لي كأس شاي، ويده الأخرى تمد الورقة إلى معلمه وهو يقول له إن قصيدة مطلق الشمري تحسم أمر السحَّارة ولم يعد لنا ـ يقصد حمدون ونفسه ـ من حق على الكاتب ولا على المكتوب.

ولقد لاحظت أن الأستاذ حمدون ساكت لا يتكلم ـ مثلما كنتُ أنا ساكتاً لا حيلة لي أمام هذا الجسد الخيزراني الملتهب ـ.

وظل سمير يتكلم حول فكرة الكتابة وعمومية النص، وقال إن الأصل في اللغة أنها صوت جماعي تجري على ألسنة الأفراد بوصف الفرد رقماً في كتيبة أو صوتاً في سرب. وما يتدفق على اللسان من مفردات وصيغ ودلالات ليست سوى وجوه من التعابير الممكنة مما هو معطى لغوي عام، تماماً مثلما أن المطر يهطل من السحاب وإذا نزل على الأرض تشعب في مساربها ووديانها وسهولها وجبالها، ولا يدعي النهر أنه صانع مياهه، كما

لا تطالب السحب باستعادة حقوقها في احتكار المياه.

وهذا شأن الكتابة.. إنها ماء يجري على نهر القلم ويتدفق على لسان الكاتب قادماً من سحب اللغة ومزنها الدفاقة.

والسحَّارة هنا ليست لحمدون ولا لسمير ولا للغذامي، ولكنها للقارىء الذي يقرأ النص ويسبح فيه.

إنها له (لهم) و(لهنَّ)

وليست لك (لنا)

والكلمة حصان طليق لا يملك عنانها سوى فارسها الذي يتقن امتطاء صهوتها ويقدر فروسيتها ويعرف أصالتها ونجابتها.

* * *

ظل سمير يتكلم ونحن نستمع مع فارق واحد وهو أني كنت أهز رأسي موافقاً أما الأستاذ حمدون فقد كان يهز رأسه مخالفاً.

* * *

23 ـ حكاية سحَّارة

ـ 1 ـ

سنحت لي فرصة بأن أتفرد بالحديث مع سمير وسألته عن حكايته بوصفه الابن الوحيد لزرقاء اليمامة، ومع أنه لم يكن مطمئناً لإثارة هذا الموضوع، وكان يود التستر على هذه القصة إلاَّ أنه أسلس القياد لأسئلتي، وشرع يحدثني عن حياة جديس ـ قومه ـ وعن طسم أبناء عمومتهم. وكان في حديثه غرائب من الأخبار والحكايات عن العرب البائدة وعن ثقافتهم وفلسفتهم عن الحياة والوجود.

فذكر لي ـ مثلاً ـ أن العلاقة بين الناس والحيوانات كانت علاقة أخوة ومحبة وعلاقة أنداد. وكانت الأشياء في زمانهم تتكلم حتى الجماد والحصى والشجر. وقال لي إن شجرة السدر النابتة في قلب المدرسة إنما هي من أحفاد أشجار (جديس) ولذا فإنها تسمع وتفهم وتتكلم، ويفهم عنها بعض الناس الذين وهبهم الله القدرة على سماع ما لا يُسمع وعلى رؤية ما لا يُرى.

وقال إن الأستاذ حمدون إذا تحوَّل إلى شخصية مسعود فإن سمعه يتفتح ومخه ينبجس عن عيون ترى وتفهم لغة الأشجار والطيور. وهذا هو سر العلاقة بين مسعود وتلك الشجرة وما يرف عليها من عصافير وهوائم.

ـ 2 ـ

تحدث معي ـ أيضاً ـ عن العلاقات الثقافية بين الأشياء في زمنهم ذاك فقال إن الحصان الجديسي على درجة من الوعي والخلق بحيث إنه لا يتقدم على (العربة) ولكنه يسير خلفها، فهو لا يجرها ولكنه يدفعها ولا يسهو عنها ولا يسير دون أن يتشاور معها على الغرض من المسار ويسعى إلى تجنيبها وعثاء السفر وكآبة المنظر وسوء المنقلب، كما أن (العربة)، وهي خشب جماد، تفهم عن الحصان وترد عليه في المخاطبة، ويتفقان معاً في موقفهما من صاحب العمل. وإذا ما تسلط صاحب العمل أو جار في معاملة الحصان كأن يضربه أو يجوعه أو يهمله فإن (العربة) تفزع للحصان وتقف معه لأخذ حقه من مستعبده. ومن هذه المؤالفة كانت للحيوانات حقوق ولهن رأي وصوت، وكان أصحاب العمل وسادة السوق وأرباب المهن يعملون حساباً خاصّاً للحيوانات الأجيرة عندهم.

وقبل سقوط مجد القبيلة كان هناك مشروع معروض في منتدى الخيول وفي مقهى الحمير يطرح فكرة فرض رواتب شهرية للحيوانات، وكانت هناك مفاوضات جادة مع الأبقار من

أجل بيع حليبهن وتسعيره، إذ لم يعد من اللائق بالبقر أن تكتفي بالمأكل والمشرب والمأوى كمقابل للحليب الدرار الذي ظل بنو الإنسان يأخذونه ويستغلونه ويكسبون من ورائه.

ولكن الأبقار ـ عفا الله عنها ـ لم تتجاوب مع الفكرة وكذا ترددت الحمير وخافت على معيشتها من احتمال قطع الرجل غذاءها من البرسيم الأخضر. ولم يبق سوى الخيول التي كانت متحمسة لفكرة تخصيص مرتبات وتحديد الحقوق والواجبات وساعات العمل والإجازات وكذا حقوق العلاقات العائلية بحيث لا تفصل المهرة عن أمها ولا الحصان عن فرسه، ولا يباع الحصان إلاَّ مع أفراد عائلته مجتمعين، وبعد موافقة خطية من الحصان تفيد بموافقته على البيع وبرضاه بالمالك الجديد، ويشهد على ذلك حصانان عدلان ويصادق عليه العمدة، وهو أكبر الخيول سناً وأرجحهم عقلاً.

يقول سمير إن والدته الزرقاء كانت هي الوسيط بين جماعة الخيول ومجلس القبيلة، وكانت الوثيقة على وشك الاكتمال، والموافقة عليها مضمونة ومؤكدة لأن للخيول مكانة خاصة في القبيلة، فهي آلة الحرب والفروسية، وإرضاؤها أمر لا مفر منه. ثم إن الخيول ضربت أمثلة راقية في الذوق والفهم والتبصر مذ أحسنت التعامل مع العربات وأكرمت (العربات) بأن جعلتهن في الأمام وجاء الحصان من الخلف، وفي كل موكب جديسي كنت ترى العربة أمام الحصان. وكان هذا ابتكاراً إبداعياً وذوقياً ترقت إليه الثقافة الجديسية على أيدي بعض الخيول الواعية والمتميزة

في فهمها وفي فكرها.

كما أن الخيول كانت تمثل الطبقة الأكثر وعياً وثقافة. وهذا كله جعل شيوخ القبيلة ووجهاءها يَعون ضرورة الموافقة على مطالب الخيول ويقدرون أحقية الخيل بتلك المزايا.

ولقد اندثرت هذه العينة من الخيول مع اندثار القبيلة، ولكن سلم منها مهر واحد فر إلى ديار بني عبس، وهناك اكتشف الحصان غلاماً أسود اللون كان موضع احتقار من أبيه وعمه وسائر أفراد العشيرة، ولكن الحصان لمس في الولد علامات النجابة والفروسية والشاعرية، ولذا فإنه قد أحبه وتعلق به، وكشف له عن سره ونطق أمامه وكان يتبادل معه العبرات والتحمحم والتكلم، ويتحمل معه ضربات السيوف ويتلقاها الحصان على رقبته ووجهه لكي يقي الغلام، وقصة هذا الحصان مع ذلك الغلام مشهورة معلومة، خلدها الغلام الأسود في قصيدة حفظها عرب الجاهلية وجعلوها من معلقاتهم.

24 ـ حكاية سحّارة

ـ 1 ـ

غاب عنا مسعود فجأة وظللت أنا وسمير نتحدث بأحاديث متنوعة وما راعنا سوى داع دعا في وسط المقهى الكبير منادياً بأعلى صوته أن يا صاحبَيْ مسعود ويا جليسَيْه إن مسعوداً محجوز لدى الشرطة ويطلب النجدة منكما.

صعقنا النداء وتبادرنا إلى الإجابة. ولقد أخذت وجهتي نحو المدينة غير أن سمير انحرف بالسيارة باتجاه الصحراء مما جعلني أدير سيارتي خلفه طالباً منه العودة والتوجه معي إلى المدينة حيث مركز الشرطة، غير أن سمير ظل يلوّح لي بيديه ويشير إليَّ بأن أتبعه، وبدا عليه وكأنه على ثقة مما يفعل.

وهكذا سرت وراءه وسط الصحاري والقفار حتى وصلنا إلى خيمة سوداء تقبع وحدها في الفيافي الخالية. وهناك دخلنا إلى خيمة صغيرة حقيرة، ورأينا أول ما رأينا مسعود بن عبد القيوم مقيداً إلى سارية الخيمة والذباب يعلو وجهه ويغطي على عينيه

وفمه، وقام فوقه رجل غليظ المظهر متيبس الملامح. ولقد حاولت مع الرجل لكي يدعني أطرد الذباب عن وجه مسعود، ولكنه نهرني بيده وتفوه عليَّ بكلام لم أفهمه. فالتفت إلى سمير مستوضحاً منه، فشرح لي أن هذا الحارس من جنود العمالقة الطسميين وأنه موكل بالمعلم مسعود، وهو يقول لك إنك لا تستطيع طرد أسراب الذباب عن وجه مسعود إلاً بإذن من رئيس المركز. فالتفت من حولي باحثاً عن هذا الموصوف بالرئيس، وفي طرف الخيمة الصغيرة شاهدت ثقباً عميق الظلمة أخذ ينفتح قليلاً قليلاً ويتسع شيئاً فشيئاً حتى انكشف عن سرداب طويل عميق، وأشار الحارس بيده بما يوحي أن أدخل وأبحث هناك عن رئيس المركز، فدخلت وحدي، بعد أن منع الحارس سمير من مصاحبتي إلى داخل السرداب. وظللت أبحث في ظلمات السرداب عن علامة أو علامات تدلني على الطريق وتعرّفني على المكان.

كان الظلام شديداً وحالكاً ولا شيء في السرداب يساعدك على سلوك الطريق غير أنني سمعت صوتاً يرن رنيناً كأنه صوت الهاتف فاتجهت إليه وظللت بأثر الصوت حتى بلغت ركناً مستديراً فيه مكاتب تشبه مكاتبنا وعلى الجدار خرائط وأوراق ملصوقة، والأرض ممتلئة بالأوراق المبعثرة، والهاتف وسط هذه الفوضى يرن ويرن ولا أحد عنده. وهذا جعلني أستوحش من المكان فرحت أصرخ بأعلى صوتي منادياً أهل المكان وتلطفت بالنداء مستخدماً كل ما أعرفه من كلمات المجاملة مثل يا

أصحاب السعادة ويا باشا ويا بهوات ويا أهل النجدة والكرم.

وأحسست بالحاجة إلى سمير لكي يسعفني ببعض الكلمات العربية القديمة من لغة جماعته من طسم وجديس ولكن لا جواب.

ولذا رحت أجوس خلال المكان وأتلمس طريقي في ظلمات السرداب حتى ارتطمت بالجدار. وكان قاسياً صلباً ولم يك جدار خيمة كما كان وضعنا حينما وصلنا الموقع.

ورحت أتلمس الجدار وأسير معه حتى لاحظت تغيراً في الملمس فتفحصت ذلك وأحسست أنه (باب) وسط الجدار فتوقفت عنده وأخذت باستقراء علاماته بواسطة اللمس حتى تبينت حدوده ولمست مزلاجه ففتحته لينفتح على غرفة عريضة مضاءة، وفيها مجموعة من الرجال يجلسون على كراسي ومن حولهم طاولات صغيرة فوقها بعض فناجين الشاي.

سلمت عليهم وكلي فرح وتوجس، ولكنهم لم يردوا سلامي. ولاحظت أن أشكالهم غريبة فهم طوال القامات ضخام الأكتاف وخشومهم ممتدة مقدار شبرين أمام وجوههم وعليهم أردية تغطي صدورهم ومن تحتها سراويل زعفرانية اللون. وعلى أكتافهم علامات كأنها مصابيح نحاسية صفراء أو كأنها ـ حصيات من نوع الحصباء مثبتة على الكتف ويختلف عددها ما بين واحد وآخر.

ضاق صدري منهم ومن حالي معهم فاندفعت نحو أقرب واحد مني وهززته على كتفه.

وما إن فعلتُ ذلك حتى تهاوت ملابسه وتناثرت تراباً على الأرض، ونط الرجل من تحت ركام ملابسه وأمسك بي راجياً مني أن أفعل مثل ذلك مع سائر زملائه.

وفي هذه اللحظة جاءني سمير وأمسك بي منفعلاً ومتوتراً ونهاني عن ذلك وقال لي إن هؤلاء رجال من رجال عمليق أصابهم مرض خطير هو مرض (الغفلة) وهو مرض معدٍ وينتقل عن طريق الكتف وحذرني من ملامسة أكتافهم وأمرني بالذهاب فوراً إلى خارج الخيمة لأغسل يدي بالتراب عشر مرّات وأفركهما بثمرات الشجر البري ثم ادفنهما لمدة سبع دقائق تحت الرمل. لكي أنظفهما من فيروسات مرض (الغفلة). وهذا ما فعلته فوراً ونجاني الله من مرض جنود عمليق.

ـ 2 ـ

وفي هذه الأثناء أحضر سمير كتاب الحيوان للجاحظ واستخرج منه حكاية أبي عثمان مع الذباب ونقل قول الجاحظ (أريد أن أخرج من موضع ليس للذباب عليَّ فيه سلطان).

وكتب الكلمة في لوح ووضعها فوق رأس مسعود وعليها توقيع الجاحظ، وبين قوسين طبع اسم (ابن عبد القيوم) فتطاير الذباب واحداً بعد الآخر، ووقعت كلها في جوف كتاب (الحيوان) وتلاشت هناك. وارتاح مسعود منها ومن أذاها. ولم يبقَ سوى أمر احتجاز المعلم وأنا على وعد وعهد مع سمير لتخليص المعلم من محتجزيه.

25 ـ حكاية سحّارة

ـ 1 ـ

مرّت بضعة أشهر انقطع فيها (سمير) عني ولم أعد أراه أو أسمع منه. وساورتني ظنون كثيرة لم أجرؤ على البوح بها إذ إني تعلمت من سمير أن البوح بالظنون يحولها إلى يقين، ولقد قال لي مراراً إن أفضل طريقة للتعامل مع الظنون هي في كتمانها ومحاصرتها داخل النفس.

لهذا فإني ظللت متحاملاً على ظنوني وكابحاً لجنوحات الشك ومخاتلات الوساوس.

حتى جاءت لحظة سمير، وكان ذلك في مطار القاهرة في الشهر الفارط، حيث وصلت للتو قادماً من الرياض لحضور مهرجان الشعر.

كنت هناك واقفاً أمام أكداس من الحقائب تلف وتدور على الشريط الكهربائي، وصديقي أبو توفيق ينظر إلى كل حقيبة تطل من فتحة الشريط منتظراً حقيبته، بينما كنت أمسك بشنطتي التي

وصلت مع أوائل ما وصل من الشنط على غير ما تعودته في المطارات.

كنت هناك واقفاً منتظراً وعن يميني أبو توفيق وأمامي موظف العلاقات العامة، ولم يكن يشغلني سوى سؤال قلق عن حالة الجو في القاهرة. وكنت خائفاً من لفحات البرد غير المتوقعة.

هناك أحسست برائحة تأتيني وتقترب مني، إنها رائحة غير عادية. هي شيء من الشيح والعرار، تأتي وتهب وتتغشىٰ أنفاسي وتزيد وتتزايد، وأحس بها تملأ المكان عليَّ حتى صار صدري يتسع ويتفتح معها إلى درجة أحسست معها أنني صرّت خفيفاً وشفيفاً وأكاد أطير خفة وشفافية. وعمني فرح عظيم ونشوة جليلة. ثم صرت أرى أشياء في سقف القاعة تتكسر معها طبقات الاسمنت وتخرج عبرها شجيرات الخزامى ويتحول السقف إلى كثيب من الرمل الأحمر الندي يفوح بالعرار والشيح والخزامى.

ولمحت وسط ذلك فراشة تطير ما بين الشجيرات وتنط بخفة ورشاقة ثم أخذت تحوم ما بين المسافات حتى حطت على أنفي ثم نطت وجلست على رأسي واستقرت أخيراً على شنطتي حيث انفتحت الشنطة تلقائياً وأخذت ملابسي تخرج منها قطعة وراء قطعة، وراحت تطير مع الفراشة وتتراقص معها إلى أن اكتملت حفلة الرقص هذه بأن خرج لي (سمير) لابساً بدلتي الجديدة وعلى رأسه عمامة خضراء تتوجها فراشة ملونة وتهب منه روائح الشيح والخزامى، فسلم عليَّ هاشاً باشاً وكله فرح ونشوة.

ـ 2 ـ

نظرت من حولي باحثاً في عيون الناس عما إذا كانوا يرون ما أرى فاتضح لي أن لا أحد سواي يرى أو يشم ما أرى وأشم. فعلمت أنني في ضيافة خاصة مع (سمير). وهنا جاز لي أن أسأله عن غرضه من زيارة القاهرة.

قال سمير إنه سمع عن مهرجان الشعر وجاء يبحث عن قصيدة ضائعة. وهي قصيدة قالتها والدته (زرقاء اليمامة) في عز شبابها وضاعت القصيدة منذ أكثر من عشرين قرناً.

وأخذ يحدثني عن أمه الشاعرة وعن زمن كان فيه الشعر مثل الماء والهواء عند قبيلتي طسم وجديس.

قال وقال كلاماً كثيراً عن نساء اليمامة وأنهن كن شاعرات وأن الشعر عندهن مثل الحليب يتدفق من صدورهن. وكان الشعر في النساء من دون الرجال ـ تماماً كالحليب ـ ولهذا كان الشعر مجانياً وهبة عمومية.

كانت المرأة تقول القصيدة في الليل ثم تعلقها على باب دارها مع بلوج الفجر فيمر جماعات من الحمالين يجمعون القصائد من على الأبواب ويحملونها على ظهورهم ويتوجهون بها إلى الحقول والمراعي وبيوت الفقراء والمكلومين فيوزعون القصائد حسب الاحتياج. هناك قصائد للرعاة تؤنس وحشتهم في الصحاري وتطرد عنهم الهوام والوحوش، وتنشط الأغنام وتدلها على مواقع النبت، وتحذرها من النباتات السامة أو تلك التي فيها

مضار لا تناسب صحة الأغنام العقلية أو الجسدية.

كما أن هناك قصائد تصلح للحصاد وأخرى للبذر وأخرى تصلح للجياع يملؤون بها بطونهم وهواجسهم إلى أن يأتيهم الطعام. وقصائد للحزانى والمكلومين وأخرى للفرحين يغنون بها وبها يهزجون.

كل هذا شعر من أشعار النساء في زمن كانت المرأة فيه واهبة اللغة والحليب.

ـ 3 ـ

هذا ما قاله لي سمير، وهو سبب حضوره إلى القاهرة، لأنه يبحث عن آخر قصيدة قالتها أمه الزرقاء قبل أن يفقؤوا عينها ويقتلوها مع قومها في زمن غبر وغبرت معه أخبار أمة من العرب لم يبقَ منهم سوى سمير الذي تحول إلى كائن مجازي يتقلب مع الأحوال ويروي لنا قصة ذاكرة مفقودة.

أما كيف ضاعت القصيدة وماذا وراء الحكاية فهذا أمر قال لي سمير إنه مسجل في مخطوط كتبه عن تاريخ اليمامة وطسم وجديس وعن (عمليق) سارق الأشعار وقاتل الأبكار ـ كما يصفه سمير ـ.

ولقد وعدني سمير بأن يطلعني على المخطوطة وسمح لي بأن أنقل منها نتفاً من حكايات القوم وأنشرها بإذن منه وهذا ما سأفعله إن شاء الله.

26 ـ حكاية سحّارة

ـ 1 ـ

تعوّدَ الناس في (اليمامة) على الشعر، وهو مما تجود به النساء بلا حساب ولا منة. وسارت الحياة على منوال شعري منساب حتى لكأنه تلقائي وفطري.

ثم جاءت أيام تبدلت فيها الأحوال، وكان أول ذلك ـ كما تكرر في الروايات حسب ما يذكر سمير ـ أن سيدة من سيدات اليمامة تدعى (حُذام) لاحظت اختفاء بعض القصائد، وبدأت تبوح عن شكوكها ومخاوفها من أن رجلاً يدعى (عمليق)، وهو أحد الحمالين الذين اعتادوا أخذ القصائد وجمعها ثم توزيعها على ذوي الحاجات، ربما كان غير أمين على ما يقع بيده من الأشعار. وظلت (حُذام) تغالب هذا الظن حتى تعزز في نفسها، غير أن النساء لم يكنّ يصدّقن هذه الظنون ولا يتصورن أن كائناً إنسانياً تبلغ به الحال إلى درجة أن يسرق القصائد أو أن يغش في أمانته. هذا هو رأي نساء اليمامة في غالبيتهن باستثناء الزرقاء

ـ والدة سمير ـ التي كانت تردد بيتاً صار مضرب مثل وهو:

إذا قالت حُذام فصدقوها

فإن القول ما قالت حُذام

وهذا ما حدث فعلاً إذ اتضح بعد التحري والتدقيق أن الرجل المدعو عمليق كان يسرق القصائد ويبيعها على صديق له اسمه (عبقر) وكان لعبقر هذا واد خلف الجبل يدس فيه المسروقات ويدفن القصائد تحت الحصى وفي جذوع الشجر حتى امتلأ الوادي بالأشعار. وتعود (عبقر) على المتاجرة بالشعر وابتكر تسعيرات خاصة به حيث صار يبيع الأشعار على رجال من قبائل العرب. وهكذا كانت النساء في اليمامة تقول الأشعار بفطرية وبدافع إنساني مجاني فيستولي عليها عمليق وصديقه عبقر ويبيعان الشعر على رجال من طالبي المال والجاه. وكان هذا يحدث بسرية وإتقان إلى أن كشفت إحدى الفتيات خيوط المؤامرة. وهذه الفتاة تدعى (هريرة) وهي ابنة أخت (حُذام)، وهريرة هذه تعرف رجلاً من أهل منفوحة ـ كان شبه أعمى واسمه الأعشى وكان يستعين بهريرة كي تقوده عبر مسالك الطريق في الليل لأنه لا يبصر الطريق. وعلمت هريرة أن هذا الرجل يأتي إلى (عبقر) لكي يشتري منه قصائد يأخذها ويدعيها لنفسه، وله زميل من بني ذبيان يدعى النابغة يفعل مثل فعله، وكان الرجلان يأخذان ما يشتريانه من قصائد ويطوفان به ديار العرب يعرضان الشعر للبيع، ولقد وجدا سوقاً رائجة في ديار غسان وعند المناذرة في شمال الديار وكانا يبيعان القصائد هناك

ويكسبان منها مكاسب مادية كبيرة. ولقد كشفت (هريرة) هذا الذي يجري وافضت به إلى خالتها حُذام.

وهكذا راجت سوق سوداء تتعاطى الشعر بالمال والابتزاز والكذب، وشاع بين الناس رأي يقول إن الإلهام الشعري يأتي من وادٍ خيالي اسمه وادي عبقر.

هذا ما أشاعه تجار الشعر وسماسرة القصائد، وكانوا طبعاً يخفون الحقيقة التاريخية عن أشعار نساء اليمامة وسرقة عمليق وصديقه عبقر لهذه الأشعار.

ـ 2 ـ

حينما علمت نساء اليمامة بأفعال عمليق وعبقر اجتمعن في ندوة خاصة في دار الزرقاء أم سمير وتداولن في الأمر ساعة حتى وصلن إلى قرار حاسم وهو إعلان الإضراب عن قول الشعر إلى أن يجري كشف مؤامرة عمليق ويجري فضح اللصوص والسماسرة.

وكان لديهن أمل في تحقيق هذا المطلب، ذاك لأن النساء كائنات فطرية إنسانية جبلهن الله على الخير والعطاء، وبما إنهن كذلك فقد كن حسنات الظن بمجتمع الرجال الذين هم المستفيدون الحقيقيون من عطايا النساء.

ولكن ذلك لم يتحقق ـ كما يؤكد سمير ـ وسارت الأمور على غير ما يرام. ولذا انقطع الشعر من اليمامة، ولم يعد في

اليمامة شعر. وحدث جفاف عظيم وحزن عميم حتى أن ابن حذام وفلذة كبدها صار يبكي الليل والنهار متمنياً ولو قصيدة واحدة. وظل حياته كلها يبكي على زمن الشعر ومجد القصائد الذي صار أطلالاً. وجاء من بعده فتى من كندة اسمه امرؤ القيس ونادى على أقرانه وأصدقائه من الفتيان مردداً على مسامعهم هذا النداء ـ وذلك حينما مرّ على ديار اليمامة فقال:

عوجاً على الطلل المحيل لعلنا

نبكي الديار كما بكى ابن حُذام

ولقد توارث فتيان العرب هذا البكاء منذ ابن حذام، وكانوا يأملون من السيدة (حُذام) اليمامية أن ترحم دموعهم فتجود عليهم بأشعارها الصافية بدلاً عن أشعار عبقر المغشوشة والتجارية، غير أن السيدة (حُذام) أعلمت الجميع أن شرطها الوحيد هو في رد الظالم عن ظلمه واسترداد المسروق من الشعر وفتح أبواب وادي عبقر لكي تخرج القصائد المحبوسة فيه وتكون شعراً مشاعاً لكل بني البشر ولذوي الحاجات والآهات.

وكانت تخص قصيدة عصماء قالتها زرقاء اليمامة يُقال إن فيها مفتاح الأشعار كلها. وهذه القصيدة سرقت يوم ولادتها سرقها عمليق ولا يعلم أحد عن مصيرها وهناك من يقول إن هذا الظالم الغاشم قد وأد القصيدة ودفنها حية وسط رمال وادي عبقر. وهناك من يقول إنه باعها على رجل من جبل (يونان) أو من بلاد فارس وأنها أصل ملاحمهم.

وهناك إشاعة أخرى تقول إن القصيدة قد فرت من يد سارقها وأنها ذهبت إلى أرض الكنانة، ويُقال إن أهل مصر يرون شيئاً يشبه القصيدة تظهر بعد الغروب على صورة فتاة يافعة سمراء، تظهر معلقة بين سطح الماء وخيوط ضوء القمر. ويقال إن مياه النيل تطير نحوها وتنبسط لها في الهواء لكي تسبح وتغسل شعرها وتطيب جسدها.

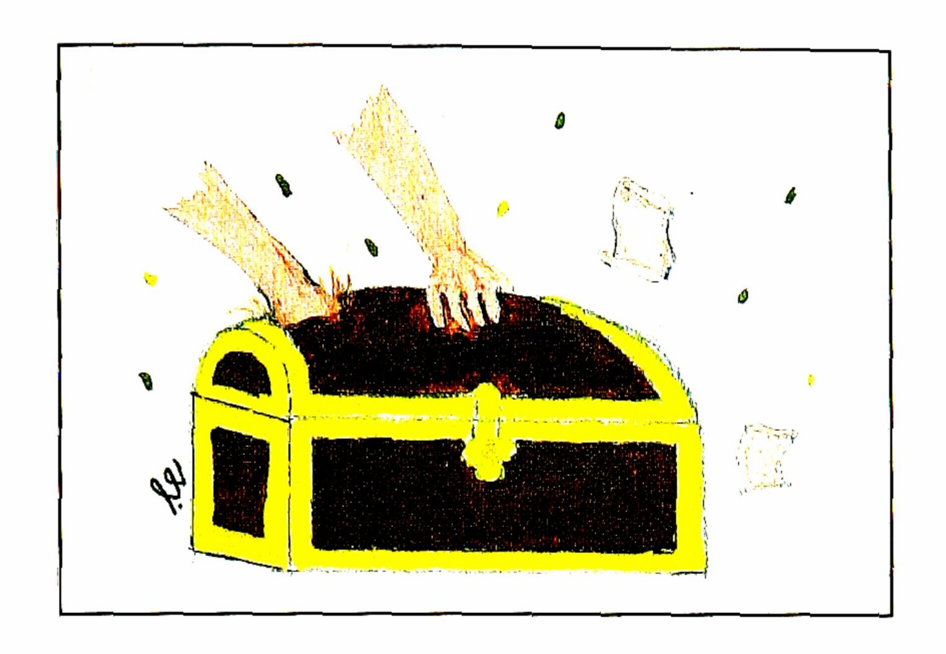
هذا ما بلغ إلى مسامع سمير فذهب بسببه إلى القاهرة مؤملاً أن يسمع في مهرجان الشعر عن شيء يدله على قصيدة والدته الضائعة.

* * *

هذا ما أمكنني نقله من أوراق السحارة، ولعلي أتمكن من نقل المزيد في جزء ثانٍ يتلو هذا الكتاب ـ إن شاء الله ـ .

سارق السحارة

ع . م . غ



قال أبو العباس، وهذا باب من تكاذيب الأعراب:

تكاذب أعرابيان فقال أحدهما: خرجت مرة على فرس لي فإذا أنا بظلمة شديدة فيممتها حتى وصلت إليها، فإذا قطعة من الليل لم تنتبه فما زلت أحمل عليها بفرسي حتى انبهتها، فانجابت.

فقال الآخر: لقد رميت ظبياً مرّة بسهم فعدل الظبي يمنة، فعدل السهم خلفه، فتياسر الظبي فتياسر السهم خلفه، ثم علا الظبي فعلا السهم خلفه، فانحدر، فانحدر عليه حتى أخذه.

الرسوم على الغلافين: رحاب عبدالله الغذامي



المركز الثقافي العربي
ص ب ١١٣/٥١٥٨ بيروت - لبنان
ص.ب 4006 - الدار البيضاء - المغرب